

کتب ثقافیه

عالم

فی الجبرائیل

جہان پور سے سارے

عارفاني الجزائر

بقلم

حسان بولسايرت

الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي

لن أرفع لكم صوت التحذير والنذير من وسائل الاستعمار الجديدة ..
فالاستعماريون المحدثون يقسمون المستعمرين إلى قسمين : فئة صالحة ،
وأخرى طالحة شريرة !!

ولن الفساد الذي استشرى في المستعمرات لما مرده إلى هذه الفئة
الشريرة ، ولكي يضلوكم في مناهات هذا الادعاء الكاذب الذي ذهبوا
إليه تجمدهم يتجولون بك بين ربوع الجزائر ، حيث تقف على رؤس الشعب
وتراه رأى العين ، ثم يقصون عليك ألوان العذاب التي يتجرعها المسلمون
على أيدي هؤلاء المستعمرين الأشرار حتى إذا قاض بك الأسى والحنق
قالوا لك : « من أجل هذا ثار الجزائريون ؟ فقد أصبحوا لا يطبقون
هذا الوضع الرجيم » فإذا جازت علينا خديعتهم هذه وانطلى علينا ضلالهم .
خرجنا ونحن مقتنعون أولاً بأن المشكلة الجزائرية مشكلة اقتصادية ، وأنه
لا بد من القيام بالإصلاحات لتوفير الخير للملايين . ثم هي بعد ذلك مشكلة
اجتماعية ، فيجب مضاعفة المستشفيات والمدارس . وأخيراً فهي مشكلة
تقانية تخضع لنظرية « دومان » في مركب النقص لدى طبقة العمال ،
فالجزائري الجاهل الذي يرزح تحت نير الاضطهاد ، ويتضور جوعاً يشعر
بمركب النقص تجاه أسياده . وأن معالجته وتهديته تكمن في مواجهة
هذه العوامل الثلاثة والتغلب على مشكلاتها فإذا امتلأ بطنه والتحق بعمل ،

وقضى على أميته ، فانه لن ينجل بعد من أن يكون انساناً أو في درجة
من الإنسان الأوربي ؛ وبهذا وحده تتجدد الأخوة الفرنسية الإسلامية
القديمة .

ولكن يجب علينا — في زعمهم — ألا نخلط ذلك الإصلاح بالسياسة
فالسياسة أمر معنوي أو مجرد :

فاذا ينجى الجزائريون من وراء اشتراكهم في الانتخابات وهم
يتضورون جوعاً ؟

إن الذين يتحدثون عن الانتخابات الحرة والجمعية التأسيسية والاستقلال
الجزائري ليسوا إلا مثيरी القلاقل والفن والشغب ، وهم الذين يعملون
على عرقلة المساعي الطيبة لحل المشكلة الجزائرية .

تلك هي حججهم وذلك منطقهم السقيم ، وقد أجاب عنها زعماء جبهة
التحرير الوطني بقولهم :

« لمنا سنقاتل ونستमित في القتال حتى وإن نكن سعداء في ظل
الحراب الفرنسية » .

ولاشك أنهم على حق في إجابتهم السديدة . بل يجب أن نذهب بعيداً
أكثر مما ذهبوا : إن الانسان لا يملك إلا أن يكون شقياً في ظل الحراب
الفرنسية المشرعة . حقا إن غالبية الجزائريين يعيشون عيشة ضنكا ،
وفي فقر مدقع ، ولكن من الحق كذلك أن تؤمن بأن الإصلاحات
الأساسية لا يمكن أن تتم على أيدي « المستعمرين الصالحين » ولا على يد
فرنسا نفسها مادامت وجهتها هي السيادة على الجزائر ، وأنه لن ينهض بها
إلا الشعب الجزائري نفسه حين يظفر بحريته ، ويكون مستقلاً استقلالاً
لا تشوبه شائبة .

إن الاستعمار لم يكن محض مصادقة . ولم يكن وليد آلاف المشروعات الفردية . وإنما هو نظام أقيم حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وبدأ يؤتى أكله حوالى عام ١٨٨٠ ، ودخل فى طور التصدع والانهدام فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو اليوم يرتد بالوبال على المستعمرين .

هذا ما أود أن تتعرفوا عليه فيما يتعلق بالجزائر . التى هى مع الأسف العميق أبغى مثال وأبرزه للنظام الاستعماري . أريد أن أوقفكم على قسوة هذا النظام الذى لابد أن ينتهى إلى هذه النهاية المفجعة .

وكيف أن أخلص النيات إذا ولدت وترعرعت فى داخل هذه الدوائر الجهنمية استعالت إلى فساد مجسم . . فليس هناك مستعمرون صالحون وآخرون طالحون ؟ بل هناك مستعمرون فحسب . . ونحن إذا ما عرفنا ذلك حق المعرفة أدركنا من فورنا لماذا كان الجزائريون على حق فى هجومهم على بناء هذا النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، وكيف أن تحريرهم بل تحرير فرنسا ذاتها لن يتحقق إلا إذا قضى على الاستعمار قضاء مبرماً .

إن هذا النظام لم يكن تلقائياً عفويا فالحق أن « ملكية يوليو » و « الجمهورية الثانية » لم تتوصلا إلى إدراك ما ينبغي عمله فى الجزائر المحتلة .

ولقد كانت هناك فكرة بتحويلها إلى مستعمرة لسكنى الفرنسيين الفائضين ، وكان « بوجو » Leroy-Beaulieu يؤمن (بطريقة الاستعمار الرومانى ، وعلى هذا الأساس منح الجنود العاملون فى الجيش الأفريقى مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع .

لقد كانت بغيتهم أن يدفعوا إلى إفريقية الأوربيين الفائضين من إجراء فرنسا وإسبانيا المتسكنين ، فأقاموا لهؤلاء الرعاع بضع قرى حول مدن الجزائر وقسطنطينة ووهران ، ولكن الأوبئة مالبثت أن فتكت بأعمهم الأغلب .

ثم حاولوا بعد يونية عام ١٨٤٨ أن يدفعوا إلى تلك البلاد موجة أخرى من العمال الماطلين الذين كانوا مثار لإقلاق لقوات الأمن في فرنسا .
وقدر هذه الموجة بعشرين ألفاً ، ولكن الكوليرا فتكت بأغلبهم وعاد الناجون من الوباء إلى فرنسا ثانية .

وهذا الذى حدث أدى إلى أرجحة الخطط الاستعمارية ثم استقرت بعض الشيء فى عهد (الأمبراطورية الثانية) بفضل قيام الصناعة وازدهار التجارة .. فإذا الشركات الاحتكارية الاستعمارية الكبرى تقوم فى فترات متقاربة .

فى عام ١٨٦٣ أنشئت شركة استعمارية للتسليف العقارى ، ومصرف وفى عام ١٨٦٥ أنشئت شركة تسليف مرسيلية، وشركة معادن حديدية فى (موكتا) ، وشركة عامة لسفن النقل البخارية .

وفى هذه الفترة أصبحت الرأسمالية والأمير يالية متلازمتين .
وقد نصب جول فيرى Jules Ferry نفسه ليكون الناطق بلسان هذا النوع الجديد من الاستعمار ، فقال :

(لمن فرنسا التى تقلت جانباً كبيراً من رءوس الأموال فيها واستثمرتها فى الخارج ، عليها أن تنظر إلى المسألة الاستعمارية من هذه الزاوية .

لما قضية الأسواق ، بالنسبة لبلاد كبلادنا ، فهى مضطرة بدافع من طبيعتها

وصناعاتها إلى تصدير كميات وفيرة عظيمة .. فإذا وجدت السيادة السياسية وجدت سيادة المنتجات أى السيادة الاقتصادية (فكان جول فيرى الركن الركين للجمهورية الثالثة . أول من عرف الاستعمار لا لينين ، ووجهة نظره . تتفق لمثاقا تاما مع المتمردين فى عام ١٩٥٦ : فهو ينادى (بالعمل السياسى أولا) .

لأنه يرى (أولا) القضاء على كل مقاومة وكل إرهاب .. ثم يقام النظام الاقتصادى بعد ذلك .

وما القضية بعد ؟ -

هل يجب إقامة صناعات فى البلاد المحتلة ؟

كلا : إن رؤوس الأموال التى تستثمرها فرنسا لا يمكن أن توظف فى بلاد مختلفة اقتصاديا ، مشكوك فى قدرتها وإمكاناتها ، وسيطول الزمن حتى تؤتى ثمارها ، ذلك أنه يجب إعداد كل شئ وتجهيزه من جديد وعلى فرض أن هذا ممكن التحقيق ، فما جدوى خلق منافسة مصطنعة لانتاج فرنسا نفسها ؟ .

إن (فيرى) كان واضحا جداً فرؤوس الأموال الجديدة لن تخرج من نطاق فرنسا ، وإنما هى ستستثمر فى الصناعات الجديدة التى تصدر كل منتوجها إلى البلدان المستعمرة .

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الغرض إقامة الاتحاد الجمركى (١٨٨٤م) وما يزال هذا الاتحاد قائماً حتى الآن .

ويؤمن هذا الاتحاد أو الحاجز الجمركى احتكار السوق الجزائرية للصناعة الفرنسية التى يعرقل انتشارها فى السوق العالمية الارتفاع الفاحش لأسعارها .

ولكن لمن تنوى هذه المصانع بيع منتجاتها ؟ الجزائريين ؟
هذا أمر مستحيل : فمن أين لهم القدرة الشرائية ؟ إن هذه الخطة
الاستعمارية ينبغي أن يقابلها خلق قدرة شرائية للمستعمرات ، والمستعمرون
طبعاً هم الذين سيفيدون من كل الطيبات وبكل الأرباح والذين سيحولون
إلى مشترين في المستقبل . والواقع أن المستعمر هو أولاً وقبل كل شيء
مشتري اصطناعي ، خلقته فيما وراء البحار الرأسمالية التي تبحث لها عن
أسواق جديدة .

وقد كان « بيريموف » (Peyerimhoff) منذ عام ١٩٠٠ يؤكد
هذه النقطة بالذات في حديثه عن الاستعمار « الرسمي » فيقول :
« إن المستعمر قد أصاب ثروته من الحكومة ، إما عن طريق الهبة ،
أو عن طريق هذه الامتيازات الهائلة التي تمنح له . وقد أقدمت الحكومة
على القيام بتضحيات ضخمة من أجل المصالح الفردية كان لا يمكن أن تبذلها
في بلاد مستثمرة استثماراً كلياً » .

وهنا يتجلى بوضوح الجانب الثاني من البناء الاستعماري :
إن على المستعمر أن يكون بائعاً لكي يكون مشترياً . فلهن سيبيع ؟
لأنه سيبيع للمستوطنين الفرنسيين . وماذا يبيع من غير صناعة ؟ لأنه سيبيع
لهم منتجات غذائية ومواد أولية . وهكذا ينهض النظام الاستعماري
تحت رعاية الوزير « فيري » والمفكر النظري « لوروي بوليو »
Leroy-Beaulieu وما التضحيات التي تقدمها الدولة للمستعمر ، هذا
الإنسان الذي ترضى عنه الآلهة ومحبه المصدرون ؟ إن الجواب يسير وهو
أن تضحي له بممتلكات المسلمين ، وتقدمها له قرباناً .

فقد اتفق أن كانت المنتجات الطبيعية في البلد المستعمر مما ينبت على الأرض ، وهذه الأرض تخص « سكان البلاد الأصليين » . ففي بعض المقاطعات القليلة السكان ، ذات المساحات غير المزروعة ، تكون السرقة أقل ظهوراً : فإن الذي يرى هو الاحتلال العسكري ؛ والعمل الإجباري . أما في الجزائر فإن جميع الأراضي كانت مفلوحة قبل وصول القوات الفرنسية وهذا يعني أن مايزعمونه من قيامهم « بحرث » الأراضي وزرعها قد قام على عملية اغتصاب من السكان استمرت طوال قرن : إن تاريخ الجزائر هو العمل على زيادة الأملاك العقارية الأوربية تدريجياً على حساب الأملاك الجزائرية .

وقد كانت جميع السبل سهلة ميسرة .

ففي أول الأمر كانوا ينتهزون أدنى لمثارة من مقاومة لمصادرة الأراضي أو الحجز عليها .

وكان « بوجو » يقول « لايعنينا في شيء أن تكون الأرض الطيبة لهذا الإنسان أو ذاك » وقد أدت لهم ثورة ١٨٧١ أجل الخدمات : فلقد سلبت مئات الألوف من الأفدنة من المغلوبين على أمرهم ولم يكتف الغاصبون بهذا بل أردنا نحن الفرنسيين أن تقدم للمسلمين هدية جميلة : أصدرنا لهم قانوننا المدني . ولكن مامرد هذا الكرم العظيم ؟ مرده أن الملكية القبلية هي غالباً ملكية جماعية ؛ فأرادوا تفتيتها ليتاح للتجار شراءها جزءاً جزءاً .

ففي عام ١٨٧٣ كلف رجال التحقيق بتحويل الملكيات الكبيرة إلى أخرى صغيرة توزع على أفراد القبيلة ؛ وكان هؤلاء المحققون يقومون بتوزيع الأنصبة على المستحقين . وكان بعضها خيالياً ؛ فقد اكتشف أحد

المحققين في دوائر « حرار » أن ثمانية هكتارات يمتلكها خمسة وخمسون على المشاع ، فقام برشوة أحد هؤلاء الشركاء ليطلب بالتقسيم .

فما أن فعل حتى دخل التقسيم في قيود من الاجراءات الفرنسية ، المعقدة الطويلة انتهت بجميع الشركاء إلى الإفلاس وبهذه الطريقة القائمة على الاحتيال استطاع تجار الأملاك الأوربيين شراء أراضيهم لقاء اقامة خبز .

حقيقة وجدنا في مناطقنا فلاحين ممن أفقرهم تركيز الأراضي في يد واحدة أو احتكار التصنيع فباعوا حقوقهم والتحقوا بالعمل في المدن . فإذا عمدنا في بلادنا إلى التوزيع العادل للأرض فلا يمكن أن نقول إن هذا العمل يتطوى على السرقة .

أما هنا في الجزائر فقد فرض قانون أجنبي على المسلمين بدافع السلب والنهب . فمن المعروف أن هذا القانون لا يمكن أن يطبق عليهم ، وليس له من أثر إلا هدم البناء الداخلي للمجتمع الجزائري .

وقد استمر هذا الإجراء في القرن العشرين تحت ستار كونه قانونا اقتصاديا اقتضته ضرورة ملحة . وما كان الأمر ليصبح كذلك لو أن الدولة الفرنسية لم تخلق بصورة مصطنعة ظروف الحرية الرأسمالية في بلد زراعي لإقطاعي ، ومع ذلك فقد امتدح بعض الخطباء في مجلسنا النيابي فرض قانوننا فرضا إجباريا على الجزائر ، ووصف ذلك بأنه من مآثر المدنية الفرنسية .

وها هي ذي نتائج عملية الاغتصاب :

في عام ١٨٥٠ كانت أملاك المستعمرين ١١٥٠٠٠ هكتار . وفي عام

١٩٠٠ ارتفعت إلى ٦٠٠٠٠٠ ر١ وفي عام ١٩٥٠ زادت إلى ٣٠٠٠٠٠ ر٧٠٣ هكتار .

ولمذن فإن ٣٠٠٠ ٧٠٣ ر١ هكتار هي اليوم للملاك الأوروبيين ، وتملك الدولة الفرنسية ١١ مليون هكتار تحت اسم الأراضي الأميرية .

أما الجزائريون فقد ترك لهم سبعة ملايين هكتار فحسب أى أنه فى خلال قرن واحد سلب منهم ثلث أرضهم . ولكن قانون التجمع قد أضر بعض الضرر بمصالح المستعمرين الصغار ، فهناك اليوم ستة آلاف مالك يزيد دخلهم من إنتاجهم الزراعى عن اثنى عشر مليون فرنك وبعضهم يبلغ المليار . وعلى ذلك فالنظام الاستعمارى قد حقق أهدافه .

فالدولة الفرنسية تقطع الأرض العربية للمستعمرين لتكون لهم قدرة شرائية تمكنهم من الإقبال على زيادة شراء المصنوعات الفرنسية على حين يبيع المستعمرون للأسواق الفرنسية محصولات الأرض المساوية ، وبهذا عزز النظام الاستعمارى ، واكتملت حلقاته ، وعلينا أن نتابعه فى كل مراحله حتى نرى قسوته وجبروته فى وضوح .

١- الغرض من «فرسة» الملكية الزراعية وتميزتها هو تخطيط المجتمع القبلى القديم من غير أن يحل محله بديل آخر .

وقد شجع هذا التخطيط لأنه أولا كان يقتل قوى المقاومة ويستبدل بالقوى الجماعية وهن الأفراد ، ولأنه بعد ذلك كان يعمل على إيجاد يد عاملة « على الأقل مادامت الحرائث لم تصنع » .

وهذه اليد العاملة وحدها تقوم بالتعويض عن ازدياد ثقات النقل والمحافظة على أرباح المؤسسات الإستعمارية تجاه اقتصاديات فرنسا حين تنخفض تكاليف إنتاجها .

وهكذا حول الاستعمار الشعب الجزائرى الى يد عاملة زراعية ضخمة

حتى قال بعضهم عن جزائري اليوم أنهم يشبهون جزائري ١٨٣٠ ،
فهم يفلحون الأرض نفسها ، وإن يكن هناك فارق بينهما فهو أن الجزائريين
اليوم أجراء فيها وليسوا ملاكاً لها .

٢- لو لم تكن السرقة من النوع الاستعماري المتعمد لكان في الإمكان
على الأقل أن يتيح الإنتاج الزراعي المصنع أن للجزائريين شراء نتاج أرضهم
بأنسب الأسعار ، ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا عملاء للمستعمرين .

إن على المستعمر أن يقوم بالتصدير ليستطيع دفع ثمن ما يستورده :
لأنه ينتج للسوق الفرنسية . وعلى هذا - يدفعه منطق النظام الاستعماري
إلى أن يضحي بمطالب الجزائريين من أجل إتراف الفرنسيين .

لقد زادت الأرض المترعة كرمًا بين ١٩٢٧، ١٩٣٢ بمقدار ١٧٣.٠٠٠
هكتار أخذ أكثر من نصفها من المسلمين - ومعلوم أن المسلمين لا يتعاطون
الحبوب ، وإنما كانوا يزرعون هذه الأراضي المبتزة منهم حبوباً للسوق
الجزائرية . وإذن فليست الأرض هي التي تنتزع منهم الآن فحسب ، وإنما يحرم
الشعب الجزائري من غذائه الرئيسي حين تزرع أرضه بالكروم ، وهكذا
يحول نصف مليون هكتار ، مقطوعة من أجود الأراضي ومخصصة كلها
لزراعة العنب إلى أرض لا تغل شيئاً للجمهرة الشعبية الجزائرية .

وماذا نقول عن الحمضيات والمواالح الموضوعة في جميع محال بقالة المسلمين
أعتقدون أن الفلاحين يأكلون برقالا بعد فراغهم من طعامهم ؟
بما تقدم ، نجد أن إنتاج الحبوب يزحف عاماً بعد عام نحو الجنوب
الصحراوي .

وليس من شك في أنه سيوجد من يبررون هذا الوضع فيقولون إن هذه
مكرمة من مكارم فرنسا وأفضالها ! !

ومعنى هذا أن التعمير واستصلاح الأراضي يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن
الرى قد استحدث في البقاع المجربة الصحراوية .

وهذه الأكاذيب قد تنطلي على المواطنين السذج القاطنين في فرنسا
أما الفلاح الجزائري فيعلم علم اليقين أن الجنوب الصحراوي لا يزال محروماً
من الرى ، وأنه أرغم على أن يعيش فيه لأن فرنسا صاحبة اليد العليا
البيضاء قد طردته من الشمال ، وسلبته أرضه الصالحة في المروج الخضراء
حول المدن .

وكانت نتيجة هذا الوضع السيء . . أن زراعة الحبوب ظلت على ما هي
عليه منذ سبعين عاماً مع أن سكان الجزائر قد بلغوا ثلاثة أضعاف ما كانوا
عليه من قبل ، ولئن قيل إن ازدياد عدد السكان هو لمحدى حسنات فرنسا
فندكر أن أشد الشعوب بؤساً هي أكثرها ذرية . فهل ترانا سنطلب من
الجزائريين أن يقدموا لبلادنا الشكر لأنها أتاحت لأبنائهم أن يولدوا
في جحيم العوز والفاقة ، ويعيشوا عبيداً ، ويقضون نحبهم جوعاً ؟ أما الذين
يشكون في هذه الحقيقة الدامغة ، فإليهم الأرقام من واقع الإحصاءات
الرسمية :

في عام ١٨٧١ : كان نصيب كل فرد خمسة قناطير من الحبوب .

وفي عام ١٩٠١ : أربعة قناطير .

وفي عام ١٩٤٠ : قنطارين ونصف .

وفي عام ١٩٤٥ : قنطارين .

وفي نفس الوقت ، كان من جراء تضيق الملكيات الفردية إلغاء
طرق المسير وحقوق المرور .

وفي الجنوب الصحراوي حيث جمعوا فيه القائمين على تربية الماشية من المسلمين فقد ظلت مواشيتهم على حالها من الهزال والقلّة .

أما في الشمال فلا أثر لها ، وقد كان في الجزائر قبل عام ١٩١٤ تسعة ملايين رأس من الماشية . أما في عام ١٩٥٠ ، فلم يكن لديها أكثر من أربعة ملايين .

أما الإنتاج الزراعي اليوم فهو كما يلي بالأرقام :
يظل المسلمون ما قيمة ٤٧ ملياراً من الفرنكات .
والأوروبيون ما قيمته ٩١ ملياراً .

أى أن تسعة ملايين نسمة تقدم ثلث الإنتاج الزراعي ، وهذا الثلث هو المحدد لهم للاستهلاك ، أما بقية المحصول فيصدر إلى فرنسا . وإذن فعليهم بآلاتهم البدائية وأراضيهم المجدبة، واجب تغذية أنفسهم ولأهلهم ويجب أن يستخلص من حصة المسلمين — بعد أن حدد استهلاك الحبوب بمعدل قنطارين للشخص — تسعة وعشرون مليار فرنك للاستهلاك الذاتي وهذا يعنى في ميزانيات الأسر عجز معظم العائلات عن الوفاء بمحاجاتها ومطالبها فالغذاء يستنفد كل أموالهم فلا يبقى منها شيء للاتفاق على الكساء والسكنى وشراء الحبوب والآلات .

والسبب الوحيد في هذا الفقر أن سياسة الاستعمار الزراعية البراقة قد أضحت بمقارنة قرحة في جسم البلاد ، وأنها تمتص كل شيء وتأتى عليه .

٣ — يؤدى تجميع الأراضي في أيدي واحدة إلى تصنيع الزراعة ولا شك في أن فرنسا سعيدة ببيع جراراتها إلى المستعمرين وبينما قلت قدرة

المسلم الإنتاجية لتوطينه في أرض ضعيفة بنسبة الخمس ازدادت القدرة الشرائية لدى المستعمرين لمصلحتهم وحدهم .

فالأراضي التي تنتج العنب وتراوح مساحتها بين هكتار وثلاثة ويستعمل فيها استخدام الأساليب الحديثة تعطى ٤٤ هكتوليتراً ، في كل هكتار . أما أراضي العنب التي تزيد مساحتها على ٦٠٠ هكتار فإنها تعطى ٦٠ هكتوليتراً في الهكتار وواضح أن ميكنة الآلات الزراعية يؤدي إلى البطالة وذلك بفعل الآلة التي تحمل محل العمال الزراعيين .

ولو كانت الجزائر تمتلك صناعة لكان ذلك ذا أهمية كبرى ، ولكن النظام الاستعماري يسلبها هذا الحق .

فإذا العاطلون يتدفقون نحو المدن حيث يعملون يوماً أو بعض يوم في أعمال التنظيم والنظافة ثم لا يجدون ما يعملون بعد ذلك ؛ وعاماً بعد آخر تتزايد أعدادهم ويمثلون طبقة الأجراء المستضعفة .

في عام ١٩٥٣ لم يكن هناك إلا ١٤٣.٠٠٠ أجير مسجلين في القوائم الرسمية على أنهم عملوا أكثر من تسعين يوماً في العام، أي بمعدل يوم لكل أربعة أيام .

وهذه نتائج الاستعمار البشعة التي لا مفر منها . فهم يبدأون باحتلال البلاد ، ثم سلب الأرض من ملاكها واستغلالهم بأزهد الأجور التي لا تمسك الرمق على أن هذه العاملة الرخيصة تصبح مع التصنيع ، أغلى مما ينبغي ! وهكذا ينتهي الأمر بانتزاع حق العمل من السكان الأصليين وهو حقهم الطبيعي ولا يجد الجزائري ، وهو في بيته وقيم في أرضه ، وفي وطنه الحبيب المرع إلا أن يسقط تحت وطأة الجوع .

أما الذين يجرؤون منا بالشكوى من أن الجزائريين يهاجرون إلى فرنسا ليغتصبوا أماكن العمال الفرنسيين ، فهل تراهم يعرفون أن ثمانين في المائة منهم يرسلون نصف رواتبهم إلى عائلاتهم ؟ ولأن مليوناً ونصف المليون من السكان الذين ما يزالون يعيشون بين الخيام والأكواخ لا يقيم أودهم إلا من المال الذي يرسله لهم هؤلاء الـ ٤٠٠.٠٠٠ جزائري الذين اختاروا المنى مقراً لهم تحت وطأة الحاجة الملحة ؟ وهذا أيضاً نتيجة مخومة من نتائج النظام الاستعماري البغيض : فالجزائريون مرغمون على التماس الخدمات في فرنسا وقد حرروا منها في الجزائر .

إن الاستثمار الاستعماري دقيق غاية الدقة بالنسبة لـ ٩٠٪ من الجزائريين : أنهم معطرودون من أرضهم . مكدسون في أراض غير صالحة يجبرون على أن يعملوا بأجور زهيدة تقرب من السخرة وتشير الاشتزاز والسخرية . وقد فعل ذلك ليثبت عزائمهم فلا يثوروا خوفاً من التشرذم وهكذا يصبح المستعمر سيداً متربحاً على عرشه يعز من يشاء وينذل من يشاء ، يعز القلة وينذل الكثرة : فليس هناك ما يحمي العامل من غائلة العجز والمرض والشيخوخة ؛ فلا تأمينات اجتماعية أو صحية ولا مستودعات للطعام ، ولا مساكن للعمال . وإنما هناك مساكن متراكمة وقليل من الخبز والتين ، وعشر ساعات من العمل كل يوم : إن الأجر هنا هو أجر الكفاف لاستعادة القوى من أجل استئناف العمل .

هذه هي الصورة الحية فهل يمكن أن نجد على الأقل تعويضاً عن هذا البؤس المنظم الذي خلقه المقتصبون الأوروبيون ، فيما يطلق عليه « الخدمات العامة » ، من قليل الأشغال العامة والصحة والتعليم ؟ لو كان لنا هذا الغزاء ، لكان في مقدورنا أن نحفظ بعض الأمل ، فلعل بعض

الإصلاح الذي يفعل بحكمة يخفف من هذا البؤس . . ولكن لا . فالنظام الاستعماري لا يعرف الرحمة .

فا دامت فرنسا ، منذ اليوم الأول قد انتزعت من الجزائريين أملاكهم وأبعدتهم عنها وما دامت قد عاملتهم على أنهم كم . همل لا يمثلون حتى أنفسهم فإن العمل الفرنسي كله في الجزائر ما وجد إلا لخير المستعمرين ومصالحهم الذاتية .

ولن أتكلم عن المطارات والموانئ فهي لا تجدى الفلاح ثقلاً إلا أنها تيسر له السفر إلى أحياء باريس الفقيرة ليقتضى نخبه تحت وطأة الجوع والصقيع أما الطرقات . فما شأنها ؟ إنها تصل المدن الكبيرة بأمالك الأوروبيين ومناطق الاحتلال العسكرية .

وهي لم ننشأ لتتيح للجزائريين الوصول إلى منازلهم ومن الأدلة على ذلك أن زلزالاً عنيفاً قد اكتسح مدينة « أورليانز » ومنطقة « شليف » السفلى في ليلة ٨ — ٩ سبتمبر ١٩٥٤ .

وقد أعلنت الصحف نبأ وفاة ٣٩ أوروبياً و ١٣٧٠ مسلماً . وقد كان بين هؤلاء الضحايا ٤٠٠ شخص لم يعثر عليهم إلا بعد مرور ثلاثة أيام بعد الزلزال . ولم تصل النجادات الأولى إلى بعض الدور إلا بعد ستة أيام .

وفي التعليل الواهي الذي تقدمه فرق الإقناذ حكم صارم على العمل الفرنسي : « ماذا تريدون ؟ لقد كان هؤلاء المسلمون يبيدون كل البعد عن الطرق العامة » وماذا عن الصحة العامة ؟

لقد أرادت الإدارة الفرنسية أن تقوم بتحقيق ، بعد زلزال أورليانز عن حالة الدور . فتبين عن طريق المصادفة البحتة أن الذين اختارهم كانوا

على بعد ثلاثين كيلو مترا أو أربعين من المدينة وأن ، الطبيب المكلف
بالاستعاف الطبي لم يكن يزورهم إلا مرتين في العام .

أما ثقافة العظيمة ، فمن يدري إذا كان الجزائريون يرغبون حقاً في
اكتسابها ؟ على أن من المؤكد ، حلتا بينهم وبينها . ولن أذهب إلى أننا
كنا في مثل وقاحة تلك الولاية من ولايات جنوبي الولايات المتحدة التي
شرعت قانوناً ظل سارياً حتى مطلع القرن التاسع عشر ، وضع فيه « تحت
طائلة العقاب » كل من يقدم على تعليم العبيد الزنوج القراءة والكتابة
ولكننا على كل حال ، أردنا أن نجعل من « لخواننا المسلمين » شعباً
من الأميين .

ويبلغ عدد الجزائريين الأميين اليوم ٨٠ في المائة ، وقد يهون الأمر
لو أننا لم نهرم عليهم الاستعمال لغتنا . ولكن الواقع أن من متطلبات
النظام الاستعماري محاولة سد طريق التاريخ على المستعمرين .

ولما كان من مقومات القومية في أوروبا وحدة اللغة ، فقد حرم
على المسلمين استعمال لغتهم بالذات فاللغة العربية تعتبر في الجزائر لغة أجنبية
منذ عام ١٨٣٠ ، لأنهم مازالوا يتحدثون بها إلى اليوم . ولكنها لم تعد
لغة مكتوبة إلا بالقوة ، لا بالفعل . ليس هذا فحسب بل إن الإدارة
الفرنسية قد صادرت دين العرب لكي تعمل على تفتيتهم واتزاعهم
من جوهر العربي . وهي تختار رجال الدين الإسلامي من بين عملائها ،
وقد احتضنت أحط أنواع الحراقات التي تؤدي إلى سيادة التفرقة .

ولاشك في أن الفصل بين الكنيسة والدولة اتجهاء جمهوري أصيل
يصلح لفرنسا .

أما في الجزائر فإن الجمهورية الفرنسية لا تستطيع أن تمنح لنفسها

بأن تكون جمهورية في الجزائر . إنها تحرص على عدم نشر الثقافة وتحافظ على المعتقدات التي تخدم الإقطاع ، وذلك بإتاحة الفرصة ليظل الإقطاع حياً سائداً بإقامة مجتمع بشري تسود فيه القوانين ذات النزعة الفردية الحرة التي تقوض كل نهوض في المجتمع الجزائري ولكنها تبقى على الملوك الصغار الذين لا يستمدون سلطتهم إلا منها ، والذين لا يحكمون إلا من أجلها لها بكلمة واحدة تصطنع « ناساً من أهل البلاد » تفصلهم عن الجماهير الشعبية ذات العقلية المحافظة ، وذلك بأن تجعلهم في نطاق فردى حر يفصلهم عن عقلية المجتمع القديمة . لأنها توجد جموعاً ولكنها تحول بينهم وبين الوعي المستنير حيث تقوم بتضليلهم وخداعهم بما ترسمه لهم من مساخر هزلية .

وهنا نرنا ، مضطرين اضطراراً إلى الرجوع إلى محدثنا السالف الذكر — هذا المحدث الواقعي الطيب القلب ؛ الذي اقترح علينا القيام بإصلاح عريض حين نادى بشعار « الاقتصاد أولاً » ولمنى أجبيه على الفور : بأن نعم ؛ لأن الفلاح يموت من المسغبة ، بل لأنه بحاجة إلى الكثير ؛ بحاجة إلى الأرض والعمل والعلم ، فالأوبئة تنوشه وحالة الجزائر الراهنة صورة مؤلمة تطفح بألوان البؤس الناشئ في الشرق الأقصى . ومع ذلك فمن المستحيل القيام بالتغيرات الاقتصادية الأساسية لأن بؤس الجزائريين وضنكهم هما النتيجة المباشرة التي تتطلبها الاستعمار ، والتي يستحيل إلزالتها مع قيام الاستعمار .

وهذا ما يعلمه « جميع » الجزائريين الواعين ، فكلهم يؤمنون بقول ذلك المسلم « خطوة إلى الأمام ، وخطوتان إلى الخلف » تلك هي خطة الإصلاح الاستعماري « الخطة التي تقضي على كل محاولة جديدة للتنظيم السليم الخطة التي لا يمكن أن تبقى إلا إذا ازدادت كل يوم قسوة ومجافاة للإنسانية

ولنفرض ان فرنسا تقترح علاجاً لهذا الوضع ؛ لمن أمامها ثلاثة حلول
أو فروض .

١ — فهي إما أن تحقق من تلقاء نفسها الإصلاحات التي ينشدها
المستعمر وتكون له وحده وقد مضت في هذا الحل فأتمت بناء سدود
كثيرة وأقامت جهازاً كاملاً للرى لزيادة المحصول الزراعى . ولكن
الحقيقة التي لا يمارى فيها هي أن الماء لا يروى إلا أراضى الوديان والسهول
الأراضى التي كانت دائماً تعد من أجود أراضى الجزائر وقد اغتصبها
الأوربيون ، ويعترف « مارنان » صراحة بأن ثلاثة أرباع الأراضى
المروية انتهبها المستعمرون .

وإذا كنتم جادين أيها المستعمرون فاذهبوا إلى الجنوب الصحراوى
وتعهدوه بالسقى والرى !

٢ — ولما أن يشوه الإصلاح بحيث يصبح مبتوراً أو غير ذى فاعلية
والحق أن نظام الجزائر هو فى حد ذاته نظام شائه ممسوخ .

فهل كانت الحكومة الفرنسية تتوى خداع المسلمين بانتخاب ذلك المجلس
من قبل طائفتين من الناحيين ؟ لمن النظام هناك لم يتح حتى للخداع أن يعمى
إلى نهاية الشوط .

فالمستعمرون لم يتركوا للجزائريين نصيبهم من هذا الخداع ، فقد كان
بالنسبة إليهم كثيراً عليهم : لقد وجدوا أن من الأيسر تزوير الانتخابات
جهازاً ، مع اعتقادهم أنهم فى جانب الحق تماماً : فخير لمن أراد أن يقتل
الناس أن يطعنهم بالحراوب . لأنها جذور الاستعمار التي تتغلغل فى نفوسهم
وتستبد بهم ، وما الاستعمار الجديد إلا الاستعمار القديم المقنع .

٣ - ولما أن ينحى الإصلاح الزراعى جانبا وتمعن الإدارة الفرنسية في إجرامها .

كان قانون « مارتان » ينص على أن يتنازل المستعمرون عن بعض مساحات من الأرض للدولة ، مقابل زيادة المحصول التى تنشأ عن إرواء أراضيهم ، وقد باعت الدولة هذه المساحات إلى جزائريين أعطوا مهلة تسديد ديونهم فى خمسة وعشرين عاما . وأنتم ترون أن هذا الإصلاح كان متواضعا فالقضية بكل بساطة هى أن يشتري بعض السكان الأصليين المختارين قطعة صغيرة من الأرض التى سلبت من آبائهم .

ولم يكن المستعمرون ليخسروا مليا واحداً فى هذه العملية ولكن ليست القضية فى نظرهم ألا يخسروا شيئا . وانما القضية هى أن يرجعوا دائماً بل يحصلوا على مزيد من الربح . فلقد عودتهم فرنسا منذ مائة سنة على « التضحيات » التى كانت تقوم بها من أجلهم فلم يكن بوسعهم الموافقة على إفادة السكان الأصليين من هذه التضحيات وكان أن أهدل قانون « مارتان » والوقوف على الحطة الاستعمارية تلقى نظرة على الطريقة التى أعدوها فى الدوائر الزراعية لتلقين الفلاح المسلم ميكنة الزراعة أو أصول الزراعة الحديثة لقد عمدوا إلى إنشاء مؤسسة وهمية لهذا الغرض لم تكن الغاية منها إلا رفع طاقة الفلاح الإنتاجية رفعاً بسيطاً لايزيد محصوله زيادة ضئيلة حتى لا يموت جوعاً .

ولكن مستعمرى فرنسا الجدد لم يدركوا فى بادئ الأمر أن هذه المؤسسة كانت إلبا على النظام .

فقد كان ينبغى أن يبقى إنتاج الفلاح قليلا حتى يباع بأسعار مرتفعة وحتى تظل الأيدى العاملة متوفرة .

إن العمال الزراعيين يضحون فادرين إذا انتشر التعليم الفني ، ويصبحون أكثر مطالب ، بل إن الملاك المسلمين يشكلون منافسة خطيرة .

ثم إن التعليم أيا كان ، ومن حيث أتى يصبح وسيلة للتحرر .
وإذا كانت الحكومة يمينية فإنها تدرك ذلك جيداً ، حتى أنها ترفض تعليم فلاحينا في فرنسا بالذات ، فأولى بها ألا تنشر المعرفة الفنية بين سكان الجزائر .

وهكذا ظلت هذه الدوائر الفنية غير ذات عمل بعد أن هوجمت خفية في الجزائر وبعنف في مراکش .

وهكذا تظل جميع الإصلاحات عديمة الجدوى . وهي بصورة خاصة تكلف غالباً .

ولا يملك مستعمرو الجزائر وسائل تمويلها ، بسبب تكاليفها الباهظة بالنسبة لفرنسا . فإن نشر التعليم العام — وهو إصلاح غالباً ما اقترح — يكلف ٥٠٠ مليار فرنك . إذا حسبنا تكاليف كل تلميذ ٣٢٠٠٠ و٣٢ فرنك في العام بينما لا تتجاوز ميزانية الجزائر كلها ٣٠٠ مليار ، والحق أن إصلاح التعليم لا يمكن أن يتحقق إلا في جزائر مصنعة تبلغ ميزانيتها ثلاثة أضعاف ما هي عليه الآن .

ولكننا رأينا أن النظام الاستعماري يعارض التصنيع ، مع أن فرنسا تستطيع أن تلهم الملايين في القيام بأعمال كبيرة .

وحين نتحدث عن النظام الاستعماري . فيجب أن نتناقص ، فليست القضية قضية آلية مجردة فإن النظام قائم ، وهو يعمل ، فدائرة الاستعمار الجهنمية واقع ملموس .. وهذا الواقع يتمثل في مليون من المستعمرين

وأبنائهم وأحفادهم ، شبوا في كنف الاستعمار فأصبحوا يكلمون ويعملون وفق مبادئ النظام الاستعماري .

ذلك أن المستعمر مصنوع كالمواطن الأصلي : إنه مرتبط بوظيفته ومصالحه مرتبط مع الحكومة الاستعمارية بالميثاق الاستعماري ، فهو يتاجر لمصلحه بالرأيا الفاحش ، فيثري من بيع محصول البلد المستعمر . بل هو قد خلق زراعات جديدة تعكس حاجات فرنسا أكثر مما تعكس حاجات السكان الأصليين . فهو إذن يعمل في ازدواج . لمن له « وطنه » فرنسا « وبلده » الجزائر وهو في الجزائر يمثل فرنسا ولا يريد أن تكون له علاقات بسواها .

ولكن مصالحه « الاقتصادية » تدفعه إلى معارضة الهيئات « السياسية » في وطنه فهذه الهيئات الفرنسية ذات أنظمة ديمقراطية بوجوازية قائمة على الرأسمالية الحرة . وهي تتضمن حق الانتخاب وحق الاجتماع وحرية الصحافة .

ولكن المستعمر الذي تعارض مصالحه مباشرة مع مصالح الجزائريين ، والذي لا يستطيع أن يعيش إلا على الاستغلال والاحتكار لا يستطيع أن أن يقر هذه الحقوق إلا لنفسه ويتمتع بها في فرنسا وسط الفرنسيين . وهو من هذه الناحية يبغض كل البغض أن تمتد انتزعات الفرنسية إلى خارج فرنسا إذن في هذه الحالة يمكن أن يطالب بها الشعب الجزائري ؛ ويؤيد كل التأييد النزعات المنصرية التي لا تذهب مذهب شمول الحرية البورجوازية من أن جميع الناس يتمتعون بحقوق واحدة ، بل إنه يصنع من الجزائري رجلأ أدنى مستوى من سائر البشر ، واستنكاره لما تؤمن به الهيئات السياسية في وطنه حين يريد مواطنوه أن يسيطروا نزعاتها « على بلده » يورث عنده نزعة انفصالية . أليس هو زعيم المستوطنين الجزائريين الذي قال منذ بضعة أشهر : « إذا كانت فرنسا حائرة ، فنحن نحل محلها » .

ولكن الناقض يبلغ مداه حين يذكر المستعمر أن المستوطنين الفرنسيين معزولون وسط المسلمين ، وأن نسبتهم هي تسعة إلى واحد . والحق أنهم لما يرفضون كل نظام يمنح السلطة للأكثرية ، لأنهم فرضوا على أنفسهم العزلة ؛ فما من وسيلة أمامهم للبقاء إلا القوة .

ولكن هذا السبب — أي عزلتهم — ولأنهم يشعرون بضالة عددهم نراهم دائماً في حاجة إلى حماية الوطن الأم ، أي قوة الجيش الفرنسي . بحيث أن هؤلاء المستوطنين المنعزلين يحيون حياتين ، ويؤمنون بدينين ، فبينما هم يؤمنون بالجمهورية في فرنسا — إلى الحد الذي تسمح لهم هيئاتنا أن يقيموا لهم « سلطة سياسية » عندما — إذا هم في الجزائر فاشيون متطرفون يعضون ديمقراطية الجمهورية ويؤثرون الجيش الجمهوري بالحب العنيف .

وهل في مكنتهم أن يتحللوا من ذلك؟ لن يستطيعوا ماداموا مستعمرين . لقد حدثنا التاريخ أن بعض الغزاة الذين أقاموا في بلاد ما واستوطنوه ، وامتزجوا بأهل البلاد وانتهى بهم الأمر إلى خلق أمة جديدة لها مصالح قومية مشتركة ، بالنسبة لبعض الطبقات على الأقل .

ولكن الاستعمار قد وقف سداً منيعاً وأقام حائطاً سميكاً فولاذياً بين المستوطنين وأهل البلاد الأصليين .

فنحن نحتل الجزائر منذ أكثر من قرن ، ولم يكده يقع طوال هذه المدة أي زواج مختلط أو تتحقق أية مودة فرنسية إسلامية اعتقاداً منه أن مصلحة المستعمرين هي نحو الشخصية الجزائرية من أجل فرنسا . فلو كانوا مؤمنين بالجزائر وقدموا والإبقاء عليها لعلوا — تحذوهم مصالحهم الخاصة — على الاهتمام بالتنمية الاقتصادية والثقافة في الجزائر .

وفي فترة الاحتلال ترى الوطن الأم واقماً في أحاطيل الاستعمار ما دام

يفرض سلطاته على الجزائر مع أن الاستعمار يُلطخ سمعته ويحط من شأنه ثم إن الاستعمار يجبر الوطن الأم على إيفاد فرنسيين روحهم ديمقراطية إلى الجزائر وقد يلقون حتفهم لا دفاعاً عن الحرية ولكن دفاعاً عن الاستبداد والظلم الذي يضطنعه مستعمرون قاشيون ، ولكن الحلقة تضيق هنا أيضاً فالظلم والطغيان الذي تمارسه لمصلحتهم يعرضهم كل يوم إلى مزيد من الإحن والأحقاد . ففرقنا العسكرية ، قدر ما تحميهم - تضاعف من الأخطار المحدقة بها ، مما يجعل وجود الجيش أمراً لا محيص عنه وسوف تكلفنا الحزب هذا العام ، إذا نحن واصلناها أكثر من ٣٠٠ مليار فرنك وهذا ما يوازي مجموع الموارد الجزائرية .

وها نحن أولاء نضل إلى النقطة التي يهدم عندها النظام نفسه بنفسه : إن المستعمرات تبهظنا بتفقاتها أكثر مما تدر علينا .

لقد كان المستعمرون مثقفين مع أنفسهم ومخلصين لنظامهم حين قوضوا دعائم المجتمع الإسلامي ، ومنعوا حق التمثيل عن المسلمين ، فالتمثيل كان معناه ضمان جميع الحقوق الأساسية للجزائريين ، وأن يفيدوا من مؤسسات المعونة والأمن وأن يكون لهم في مجلسنا النيابي مائة نائب جزائري . وأن يهيأ السبيل للمسلمين ليعيشوا في مستوى من الحياة يعادل مستوى الفرنسيين وذلك بإجراء إصلاح زراعي حقيق وتصنيع البلاد . . وتمثيل الجزائريين معناه إذا تحقق نهاية الاستعمار : فكيف يسوغ الاستعمار هدم نفسه بنفسه ؟ ولكن ما دام المستعمر لا يهتم إلا بمصلحته وسعادته ولو على أشلاء المستعمرين وبؤسهم فلا بد أن يكون لهذا الموقف الملبى رد فعل يتمثل في وعى الجماهير .

لقد اكتشفت الشخصية الجزائرية نفسها كرد فعل للتجزئة والنضال في سبيل الحياة ، وليست القومية الجزائرية مجرد لمحياء للتقاليد والمواضعات

والصلات ، وإنما هي المخرج الوحيد الذي يملكه الجزائريون لوضع حد لاستثمارهم واستغلالهم .

لقد رأينا جول فيرى يصرح في المجلس « حيث السيادة السياسية تكون السيادة الاقتصادية . . »

ونحن نرى أن الجزائريين يترنحون ويتساقطون من جراء سيادتنا الاقتصادية ، ولكنهم يأخذون عبرة من هذه التجربة التي تمر بهم ، فلقد قرروا من أجل عدم سيادتنا الاقتصادية ، أن يهاجموا سيطرتنا السياسية وهكذا خلق المستعمرون لهم أعداء متربصين ، فأظهروا للمتريدين الشاكين أنه ليس هناك من حل أمامهم إلا طريق القوة .

لأن الحسنة الوحيدة التي يمكن أن تذكر للاستعمار هي أن يظهر بمظهر الصلابة والتشبث من أجل بقاءه واستمراره وفي هذه السياسة المتشددة يضع نهايته ويقيم لحده .

أما الدرس الوحيد الذي تعلمناه من هذه الأحداث - نحن فرنسيي الوطن الأم - فهو أن الاستعمار يعمل الآن على هدم كيانه ، ولكنه مازال سادراً في تعكير الجو . إنه عارنا ، وهو يتنكر لمبادئنا ويظهرنا بمظهر ساخر أمام العالم . إنه ينشر بيننا وباء العنصرية ، كما أثبتت ذلك حوادث « مونييه » أخيراً وهو يفرض على شبابنا بذل حياتهم رغماً عنهم من أجل مبادئ نازية نحاربها منذ عشر سنوات ، وهو يحاول أن يبرر أعماله الوحشية بخلق الفاشية في داخل بلادنا ، فرنسا ذاتها ، وأن مهمتنا هي أن نساعد على أن يلفظ ألقاسه الأخيرة لا في الجزائر وحدها ، بل حينما وجد وأنى كان ، ولا شك أن الذين ينادون بالتخلي عن الجزائر هم أناس بلهاء ، فليس لنا أن نتخلي عما لم نملكه قط . بل الأمر على العكس هي أن نقيم مع الجزائريين علاقات

جديدة . . علاقات بين فرنسا الحرة والجزائر الحرة . . ولكن فلنحذر
هذا الخداع المغلف بالإصلاح فقد يتأى بنا عن السبيل الذي رسمناه .

إن الاستعماري الجديدى هو إنسان منجبط فى متاهات الضلال ما دام
يعتقد أنه فى الامكان تحسين النظام الاستعماري أو هو انسان يتسم باللؤم
والمكر ، فهو يقترح الإصلاحات لأنه على يقين من أنه لامتع من ورائها .
إن الإصلاح سيتحقق من غير شك ولكن الشعب الجزائري هو الذى
سيحققه .

إن الشيء الوحيد الذى يجب أن تقدمه للجزائريين اليوم هو أن نؤازرهم
فى جهادهم لتحريرهم وتحرير الفرنسيين من وصمة الاستعمار البغيض .

شهود من المجندين

لقد نشرت في الفترة الأخيرة بيانات ووثائق عن وسائل السلام التي
تبعها فرنسا في الجزائر وذلك في كتاب عنوانه « شهود من المجندين »
Des Rappels temoignent فهل اطلعتم عليه ؟ ؟

إن هؤلاء العائدين من المسيحيين كهنة ورجال دين مجندون .
ومن المحتمل أن تختلف آراؤهم في السياسة وتباين رغم أنهم لم يذكروا
لنا عنها شيئاً وإن تكن رغبتهم جميعاً الكشف عن هذا القرح — الذي
قشا في الجيش وإن لم يعمه كله ، والذي أصبح من المستحيل تحديد مكانه
بالضبط — وعن ممارسة الدكتاتورية العنيدة وأساليب العدوان والاستغلال
والقسوة ، فهناك تسلب الأموال وتنتهك أعراض النساء ، ويتقم
من المدنيين بممارسة إبادة الجنس وقتل الجماعات دون أدنى محاكمة ،
ويسامون أبشع أدوات التعذيب في استجوابهم للإدلاء باعتراف أو تقديم
معلومات .

والحق أن هؤلاء الشهود تحدثوا في صراحة مذهلة قفضحوا جميع جرائم
الحرب التي شهدوها بأعينهم ولسوها بأنفسهم .

إن هذه الشهادات العادلة ، المنصفة التي يميزها أشد الناس لمجراما ،
لأنما تؤلف وثيقة رهيبة ، وأن قراءتها أمر عسير ، فطالبها يغالب نفسه

للإنتقال من سطر إلى سطر ومن فقرة إلى فقرة .

وبالرغم من ذلك العناية المعنى فاني أوصيكم بقراءة هذا الكتيب ،
أوصي جميع الذين لم يقرأونه الآن بالقراءة ، كما آتني أن يقرأه جميع
الفرنسيين ، ذلك لأننا مرضى نعاني من داء ويل .

إن فرنسا المحكومة ، المأخوذة بأحلام مجدها التليد من غير أن تستشعر
الحجل ، تتخبط وسط ظلام دامس وتحت وطأة كابوس ثقيل لا تستطيع
منه حراكا ، فاما أن نرى كل شيء أمامنا بوضوح تام ولما أن نتفجر
بالسخط والغضب .

فمنذ ثمانية عشر عاما نرى أن بلادنا كانت فريسة لما أسماه القانون
(عملية قتل المعنويات) والحق أن قتل معنويات أمة لا يتأتى أولا بحطيم
معنوياتها وإنما يكون بانحطاط أخلاقها .

أما الوسيلة فلا يجهلها أحد ، حين ألقوا بنا في مغامرة حقيرة أوحوا إلينا
شعورا بالذنب الاجتماعي .

ولكننا ندلى بأصواتنا وفي أيدينا السلطات ونستطيع بطريقة ما أن
نسحبها . فإن ثورة الرأي العام تستطيع أن تسقط الوزراء وينبغي أن
نكون على علم بالجرائم التي ترتكب باسمنا حتى نستطيع إيقافها ، وهذا
الشعور بالذنب الذي يرقد في نفوسنا من غير أن يتحرك ينبغي أن نضعه
في حسابنا وأن نذل ونسفل لكي نستطيع احتماله .

على أننا لم نتحط إلى مثل هذا الدرك حتى نسمع صراخ طفل معذب

فلا تتألم ولا تشعر بهول المصاب (١) .

وقد يسهل علينا أن نهون من هذا الأمر لو أن هذه الصرخات تطرق
أسماعنا بالفعل ، ولكنهم في الواقع يسدون لنا جيلا بكتماها عنا .

ليست القصة هي التي تقتل معنوياتنا أو البغض والحقد وإنما هي كتمان
الحقائق عنا حتى نعيش في ظلام لا أول له ولا آخر ، وقد نسهم نحن أنفسنا
في الإبقاء عليه .

لأن حكامنا بحرصهم الشديد على توفير الراحة لنا لا يتورعون عن
ألا يزودونا بالمعلومات والحقائق الصحيحة بتعمد إخفاءها أو تصفيتيها .

فمثلا حين يقتل الثوار أسيرة أوربية لا تنقل إلينا الصنفين من أخبار
هذه المجزرة حتى ولا صور الجثث والأجساد الممزقة ، ولكن حين لا يجد
محام مسلم أي ملجأ من جلاديه الفرنسيين غير الانتحار فإن الخبر يشار إليه
باقتضاب وفي كلمات قلائل (حرصاً) على حساسيتنا .

فالتناق والخداع والكذب واجب على ناقلي الأخبار في فرنسا ،
والجريرة الوحيدة هي تكبير صفونا .

ولقد أكدوا ذلك الواقع للسيد بايرجا Peyerga فلن نجد في الجزائر
من يمكنه إنكار الأحداث التي قلها لنا ، وما أخذوه عليه فحسب أنه
رواها لنا نحن الفرنسيين .

وهناك أيضاً جنود فراسيون يذبحون في شوارع مدن الجزائر تحت

(١) تراجع الصفحتان ١٠ و ٥٩٩ من كتاب (شهود من المجندين) .

أنظار السكان الأوربيين المتعطشين لإثارة الحرب . ولكن هذا ليس من شأننا .

إن حقيقة إفرقية هي خمر قوى أسر لا تستطيع رؤوسا المرهفة احتماله :
فإذا أصيب المستوطنين إذا ترنحت البلاد الفرنسية ؟
إن الهدوء هو ما نحتاج إليه ، ونحتاج أيضاً إلى فترة استجمام وبعض ألوان التسلية : فنذ عهد لويس السادس عشر أصبح كل فرنسي يتيماً ، وأن حكومة موليه تعرف حدود طبقتنا البرجوازية وتقاسمها لمياه ، وهي على استعداد لتقديم أية تضحية . فقد نصبت ملكة إنجلترا على عرش فرنسا لمدة ثلاثة أيام فما ألد ذلك وأجمله ! !

إن الناس يتحدثون فيما بينهم من غير أن يعرف بعضهم بعضاً ، وهم يتماسكون بالأيدى ويرقصون . وبالرغم من ذلك فإن في الجزائر أبطالاً مكافئين يواصلون جهادهم ، فليس عند الجلادين أيام عطلة أو أعياد فإن الإذاعة تحمل إليهم آيات جنودنا فيقولون لأنفسهم : « أما وقد حصلوا الآن على غايتهم فليتركونا وشأننا » ..

وقد توجهت الملكة في أثناء استراحتها إلى قصر وندسور فإذا فرثا وهي في سورة الحب والمرح تسقط لمعياء وتلازم الفراش ، فما كان من الحكومة الفرنسية إلا أن أشارت إلينا من طرف خفي وهي تمشي على حذر هامة : « لا تقلقوا نومها ! »

وبالرغم من هذا فإذا أتيح لواحد منا أن يستيقظ من سباته ، وأن يسأل ممرضيه فسرعان ما تعد الحكومة إلى حياة أخرى ، وبأسرع ما يمكن تؤلف لجنة تنحصر مهمتها في التخفيف من مسؤولياتنا وأن تقول لنا :
« هل تجاوزنا الحد ؟ وهل حدث منا سوء تصرف ؟ »

ربما ، ولكنها مرة أو مرتين ، ولابد أن تقع أخطاء في الحروب .
ثم خبرونا : ما الذى يشغلكم ويقلق بالكم ؟ لأنكم تعيشون بعيداً عن
الجزائر ، ولا تعرفون القضية على حقيقتها ، فأولوا أنفسكم
لأذن هذه اللجنة التى ستكونها من أشخاص متصفين بالطيبة متخصصين
في حالات الوسواس وقلق الضمير ، فأبلغوها ما يساوركم من قلق ،
وسوف تنقله هى الى الجزائر ، أما أنتم فناموا فريى العين مرتاحين
الضمير .

ولكن ليتنا نستطيع النوم ، أو نستطيع تجاهل كل شيء !!
ليتنا منعزلون عن الجزائر بجزر من الصمت !! وليتهم يستطيعون
خداعنا !!
لأن الأجنبي قد يستطيع حيثئذ أن يشك في ذكائنا ، ولكنه لن يشك
في سلامة ضمائرنا .

والواقع أننا لسنا سليمى الضمائر . لما قدرون . لأن ضمائرنا لم تعمر
وهي مع ذلك مبللة . وحكامنا يعرفون ذلك حق المعرفة . وهم يريدوننا
على هذا النحو . لأن كل الذى يريدون أن يتاح لهم بهذه الرعاية والعناية
والتحفظ هو اشتراكنا في الجرعة تحت ستار من الجهل الزائف ، فالناس
جميعاً قد سمعوا بأساليب التعذيب ، وتسربت هذه الأنباء الى الصحف
الكبرى رغم كل شيء وكل رقابة . ونشرت صفرى الصحف التى تنسم
بالشرف بعض شهادات مختلفة .

وتداولت الأيدي نشرات عديدة ، وعاد جنود يتحدثون عما شاهدوه
ولكن هذا هو ما يخدم الدين يعملون على إفساد المعنويات وزلزلة القيم :
لأن كل شيء يتوه أو ينبت في الكتل البشرية ، ويجب أن تمهد السبل
للأنباء الواردة من هنا وهناك ثم تلتوى بها السبل الضيقة المتداخلة ويقضى

على الأنباء ، أما الصحف والصحف فلا تقرأها غالبية الفرنسيين لأنهم لا يستطيعون قراءتها ، وإنما هم يعرفون أشخاصاً بأعينهم يقرءون لهم ، وكثيرون منا لم يحدث أبداً أن استمغوا إلى مجند وهو يتكلم ، وإنما نقل إليهم ما كان يرويه بعض المجندين المائدين .

وهذه الشهادات البعيدة المتناقلة في تواتر تكذب رسمياً ، ثم تتضاءل في أثناء تداولها تدريجياً . وهنا ندخل في دور التساؤل ويا للأسف ! لماذا نصدق كل هذه الروايات ؟ ؟ أين هي الأدلة ؟ أين هم الشهود ؟

أما الذين يقولون أنهم مقتنعون ؟ فلائهم كانوا كذلك من قبل . صحيح أنه لا يمكن رفض جواز حدوثها ولكن علينا أن ندرت وأن ننتظر ، وعلينا ألا نصدر الحكم قبل أن نتأكد ، وإذن فنحن لا نحكم ولا نستعلم كذلك . فجرد أن نحاول الحصول على أوراق الدعوى حتى يتحول مجتمعنا الواضح إلى غابة بكر : نسمع فيها دوى الطبل من مسافة بعيدة ، وبشكل غامض ، وإذا أردنا الاقتراب من مصدر الدوى رأينا أنفسنا نسير في حلقة مفرغة ثم نكتفي بأن نقول : يكفيننا ما نتحملة من هموم شخصية ولا داعي لتحمل هموم الآخرين .

إن الذي قضى يومه في الكد والعمل وقابل في مكتبه كثيراً من مضايقات الحياة اليومية ، ليس ملزماً بأن يقضى السهرة في جمع الأخبار عن العرب ومتاعبهم .

وهذه هي أول أكاذيبنا - ليس على الذين يفسدون المعنويات إلا أن يثقوا بها ويقولوا : لمنا سننجز العمل بأقسننا . والحق أن الهموم الذاتية لا تحول بين المرء وبين قراءة الصحيفة اليومية بعد العشاء ، والحكم على القضايا العامة يلهم عن القضايا الخاصة .

ولن ذرف الدموع أو الاستسلام لعسر هضم عفيف ينسى الغضب
المكبوت في النفس طيلة النهار . إن الصحف تخايلنا : فهي تريد أن
تدخل في روعنا . أتنا طيون... وهنا يكمن الكذب ، وتبريره يسير فإننا
تنقصنا الأدلة ولذلك لانستطيع أن نصدق شيئاً . غير أننا لا نبحث عن هذه
الأدلة لأننا تقسر على المعرفة . وما الذي كان ينبغي الذين يقومون على إفساد
معنوياتنا ؟ إنهم ييغون ذلك ولا شيء سواه : جهلاً قائماً على الغدز ،
ولا يمكن التجاوز عنه ، لأنه يدفعنا إلى طريق الهوان ويقربنا شيئاً فشيئاً من
هؤلاء الذين كان يجب علينا أن نحكم عليهم ، حتى إذا اقتربنا منهم كل
القرب لم نلبث أن نصيح : الناس إخوة ، « والناس سواسية » ثم نرتدى
في أحضانهم .

أما كذبتنا الثانية فقد أعدوها لنا . إن الفخ يتمثل في اللجنة المشكلة
وحبذا لو أمكننا أن نثق بها ، ولكن على فرض أننا نريد ذلك ، فنأين
نستمد الخداع اللازم ، وما فائدة أية لجنة حين تزداد المذابح والجرائم
في جميع أنحاء الجزائر ؟ من الذي سينقل إليها وهي في مدينة الجزائر ،
ما يقترف في الريف ؟ ومن الذي يبادلها الرأي ؟ وفي أي شيء ؟ أتراها
نستذكر الناس بمحقوق الإنسان ؟ إن الجميع يعرفونها بما فيهم السيد
« لاكوست » إن القضية تتمثل في الاعتراف بمحقوق الإنسان : فكيف
يراد لها أن تبلغ ذلك ؟ .

وإذا كان الوزير المقيم لا يستطيع أن يحد من الأعمال غير المشروعة
فهل يظن أن تعيين بضعة مستشارين معه سيمنحه من القضاء على هذه

الأعمال ؟ وإذا كان هو نفسه يستطيع أن يقضى على الجرائم والمآثم ،
فما حاجته إليهم ؟ الحقيقة هي أن الحكومة قامت بحركة ما ، فصرح السيد
موليه بأنه « قلق مضطرب » وأنه ينبغي التنور في الموضوع كله . وإذا
نحن صدقناه كان لنا في ذلك عذرتنا :

إن الكلمة الإنسانية موضوعة لكي تصدق . وإذا نحن لم تصدقه
كان لنا عذرتنا :

فكلمة السيد « موليه » موضوعة لتكون مثار شك وريبة . إننا
نعرف أن لجنة التحقيق ستكون من رجال لا غبار عليهم ولا مطعن فيهم
ونعرف أيضاً أنها لن تستطيع أن تؤدي أى شيء :

إن نزاهتهم تفيدنا في أنها تمنع عجزهم ، ولذلك فنحن نرفض أن نمنح
الحكومة ثقتنا ولأن كنا نعتد عليها لكي تبدد شكوكنا .

مجرمون . مجرمون مرتين . إننا نشعر بأننا فريسة ضيق واضطراب ،
لأن لم يكن هو الهول بعد فإنه النذير بأن الهول قريب منا وأنه يتهددنا
لدرجة أننا لا نستطيع ولا نريد أن نلقاه وجها لوجه . ولجأة يلعب بريق
يخطف الأبصار فنهتف : « هل كان هذا صحيحاً ؟ » .

وهكذا يجد كل منا جاره مريباً ويخشى أن يبدو هو مريباً أمام
جاره . قد يختلف بعض الأصدقاء في الرأي حول قضية الجزائر ولكن
ذلك لا يحول دون احترام بعضهم لبعض . ولكن ما القول في الإعدام
بالجملة أو إبادة الجنس ؟ وما القول في ألوان التعذيب المختلفة ؟ هل من
الممكن الاحتفاظ بصداقة هؤلاء الذين يقرونها ؟ لأن الجميع واجون ينظر
بعضهم إلى بعض وكل منهم يحدث نفسه متسائلاً « ما الذي يعرف ؟ ما الذي

يظنه ؟ ما الذى اعتزم أن ينسأه ؟ « لأن الناس يخافون الحديث فيما بينهم إلا إذا كانت أفكارهم متشابهة متقاربة . فإذا حدث واكتشفت مجاملة خبيثة من إنسان شد على يدي فإن هذا الإنسان لا ينطق بشيء ؛ ومن لا يتفوه بشيء عد موافقاً « فالسكوت رضا » كما يقولون ، غير أتى أنا الآخر أمسك عن الكلام .

ولكن لنفرض أنه هو الذى كان يأخذ على ضعفى وتحاذلى ؟ .

لأن الحذر يفرض علينا عزلة جديدة : وهذه حالنا فنحن نعيش في اتصال عن مواطنينا خشية أن نخط أو يحط من قدرنا .

والحقيقة أن هذا شيء واحد ، فنحن جميعاً متشابهون ونحن نتخرج من أن نسأل الآخرين لأن إجاباتهم ستكشف عن انصطاطنا وضعفنا فثلاً إذا همس أحدهم بهذا السؤال ليتحلل من قلقه ، ويلقى بأثقاله ويبرج جراثيمنا :

والثوار ؟ ألم يرتكبوا الفظائع ؟

نفهم فجأة أن الرعب والظلام والصمت المطبق قد أهوت بنا مرة أخرى إلى غصور الثأر البربرية .

وأن نحكم على الفرنسيين بوصف واحد هو أنهم ذوو ضمائر فاسدة ربما نستثنى منهم السيد « موليه » !

وهذه الضمائر هي التى تنزع بنا إلى الإجرام . لأن تشتت فكرنا ، ولعبة « الغاية » التى نلعبها فى داخل أنفسنا . وهذه المصاييح التى تنفث ضوءها ، وهذا الملق المؤسف ، ينبغى ألا نجد فيها جميعاً طريق الخلاص بل تدير ترد عميق ، لمتنا نهوى إلى قاع البحر وقد ثور ثائرتنا عندما

نرى الآخرين يصدرون حكمهم القاسى علينا ، فيجرفنا غضبنا شيئاً فشيئاً إلى
المشاركة فى الجريمة :

ليس من حق الولايات المتحدة الأمريكية أن تتكلم فإنها تعامل هى
الأخرى الزوج فيها معاملة شاذة :

هذا صحيح فإنه لا يحق لأمريكا أن تتكلم ، ولا يحق كذلك للسويد
التي ليست دولة مستعمرة ، لا يحق لأحد أن يتكلم .

أما نحن فيجب علينا أن نتكلم ، وهانحن أولاء لا نتكلم . إن لنا
مراسلين بشفاء لا تنقصهم الشجاعة ، يدلون علينا بما يعرفون كل يوم
أو كل أسبوع فإذا نحن نسعى إلى هدمهم أو سجنهم .

وهكذا يقل الاستماع إليهم ولكن ما دهمى الأصوات الشريفة
المدوية التي أخذت تترنم ترنيمة الأرغن فى نوفمبر الماضى؟

لقد فاضت أنفسنا جسرات ، وصعدنا حر الأتقاس وزأرنا لوقف التدخل
السوفيتى فى المغرب (١) ، مادمى هذه الأصوات اليوم فلا تفضى إلينا بكل
شئ عن أنفسنا ، عما نفعلة فى الجزائر لانكم تحيطون بكل دقيقة وجليلة
وليس لكم عذر الجهل ، والوثائق والأدلة تحت أسماعكم وأبصاركم .

إن الأمر يتعلق بنا اليوم ونحن بحاجة إلى أن نعرف وأن نصدق، لانكم
وحدكم ، بينكم خلاصنا من هذا الكابوس الجاثم على صدورنا ولما قدنا من
هذا العار الذى ألصق بنا ولكنكم وأأسفاه ما تكون سكون القبر ولانه
لتقدير خاطيء إلا يحكم علينا من صمتكم اليوم ، بل من ثورتكم فى نوفمبر
الماضى .

(١) كان ذلك عام ١٩٥٦ « لجنة كتب ثقافتنا » .

لماذا ؟ لأتينا صامتون الآن ، ولأتينا سنوضع في مأزق حقيقى ، وفي موضع سبق لنا أن تصدينا له نحن أنفسنا بظالمتنا السيئة . لأنها براءة مصطنعة ، وهروب من الحقيقة ، ومجاملة مرذولة ، وعزلة رهيبية وصمت مطبق ومشاركة فى الجرم مرفوضة ومقبولة .

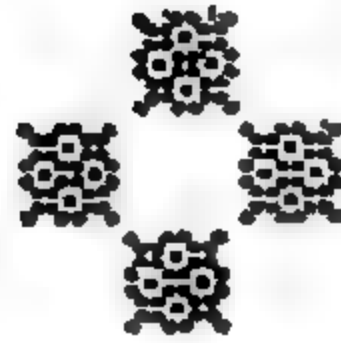
وهذا ما أسميناه عام ١٩٤٨ بالمسئولية الجماعية لاذ ما كان ينبغى للشعب الألمانى فى تلك الفترة أن يجهل وجود معسكرات التعذيب ، وكنا نقول : كفى هذيانا . لقد كانوا يعرفون كل شئ ! « وكنا على صواب فقد كانوا فعلا يعرفون كل شئ واليوم فقط نستطيع أن ندرك ذلك ، فإننا أيضاً نعرف كل شئ . »

إن معظم الألمان لم يكونوا قد شاهدوا « داشو » ولا « بوشانوالد » ولكن الأنباء قد تواترت إليهم من أناس شاهدوا الأسلاك الشائكة أو وقفوا على ملفات سرية مطوية فى إحدى الوزارات ، وقد كانوا مثلاً يعتقدون أن هذه الأنباء غير موثوق بها مطعون فى صحتها فكانوا يحسبون عن الخوض فى الحديث وكان يحذر بعضهم بعضاً . نستطيع بعد هذا أن نجرؤ على الحكم عليهم ؟ أو أن نجرؤ على تبرئة أنفسنا ؟

إن علينا أن نقرش الأبسطه فى ساحة « الكونكورد » حتى نجعل العالم على أن ينسى أن هناك أطفالا يسامون سوء العذاب باسمنا وأتينا لانرفع صوتنا استنكراً لهذه الأحوال البشعة لأنه لم يفتنا الأوان بعد لإجباط عمل هؤلاء الذين دأبوا على هتك شرفنا القومى وتلويت سمعتنا ولايزال من الممكن تحطيم الدائرة الجهنمية التى أغلقت علينا من مسئولين غير مباينين ، هذه السداجة الحيثة ، هذا الجهل الذى هو المعرفة ، فلننظر

إلى الحقيقة ، فهي التي ستتمكن كلامنا من أن يعمل علانية على وقف الجرائم
المقترفة ، ولما أن نقبناها وترضى عنها ونحن بكامل وعينا .

من أجل هذا أصبح لزاما على أن أرشد الجمهور إلى كتاب المجندين
العائدين ، ففيه الحقيقة المرة ، والهول المفرع ، هولنا نحن ، فنحن
لن نستطيع أن نراه من غير أن نتخلص منه ونقضى عليه قضاء مبرما .



الجلادون !

لقد كان الفرنسيون في عام ١٩٤٣ — حينما كان مصير الحرب متعلقاً في ضمير الغيب — يثابرون من القلق والألم . وعلى الرغم من أننا لم نكن نفكر كثيراً في المستقبل إلا أننا كنا نحس على أن أمراً واحداً يبدو مستحيل التحقيق ألا وهو أن يكون في استطاعتنا أن نجعل رجالاً آخرين يضجون مما نعانى في تلك الفترة المهلكة .

لن كلمة المستحيل ليست كلمة فرنسية الأصل : فالجزائريون في عام ١٩٥٨ أصبحوا يسامون سوء العذاب بشكل منظم ومستمر ، والكل على علم بما يحدث من لاكوست إلى مزارعي لافيرون . . . ولا يستطيع أحد أن يتكلم أو يخوض في مثل هذا .

هذا وإن كانت فرنسا تحت الاحتلال أكثر بكثير منها الآن ، بالرغم من أنه كان لها العذر إذا هي حملت السلاح .

لقد حكموا علينا في الخارج بأننا شعب نسير في طريق الانحلال والانحدار منذ عام ١٩٢٩ في رأي بعضهم وفي رأي الآخرين منذ عام ١٩١٨ .

وإيه لقول مرتجل فأنا لا أجزم في سهولة بانحدار شعب وإن كنت على يقين من خبله وفشله الترييع .

وفي أثناء الحرب عند ما كانت الإذاعة الاتكليزية أو المنشورات السرية

تحدثت عن « أورادور » كنا ننظر إلى الجنود الألمان الذين كانوا يتجولون في الطرقات نظرة بريئة وكنا نقول أحياناً : لانهم على كل ماحدث رجال يشبهوننا فكيف يكون باستطاعتهم أن يفعلوا ما فعلوا ؟

وكنا نفخر بأنفسنا لأننا عجزنا عن الفهم .

واليوم نعلم أنه ليس هناك شيء قابل للفهم .

لقد تم كل شيء في غفلة واستسلام غير ملحوظ وعندما تمكنا من رفع رؤوسنا ونظرنا في المرأة وجدنا وجهاً غريباً منفراً هو وجهنا .

إن الفرنسيين يكتشفون في غمرة هولهم ، هذه الحقيقة الزهية : فإذا لم يكن هناك ما يحصن أمة من نفسها لاما ض عريق ولا رصيد من الأمانة ولا قوانينها الخاصة بها وإذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا إلى جلادين ، فذلك لأن الظرف هو وحده الذي يفصل في هذا الأمر فوق الظروف يستطيع الفرد في أي مكان وفي أي زمن أن يتحول إلى ضحية أو إلى أن يكون جلادا .

إن الذين استسلموا من غير أن يضطروا إلى أن يسألوا أنفسهم هذا التساؤل : هم السعداء . « أتراني أعترف إذا هم ترعوا أظفاري ؟ » وأسعد من هؤلاء ، وأولئك الذين لم يشبوا عن الطوق بعد ولم يضطروا إلى أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال الآخر :

« ما الذي أنا فاعله ؟ إذا تراءى لأصدقائي وإخواني في امتشاق السلاح أو رؤسائي إلى انتزاع أظفار عدو أمام ناظري ؟ »

وهؤلاء الشباب الذين ينج بهم في المواقف الحرجة ، ماذا يعرفون عن أنفسهم ؟

القرارات التي تتخذ هنا ، يظنون أنها عندما يحين الأوان ستبدو لهم مجردة هواء ، وإن وضعنا غير مرتقب سيعيد النظر في قضيتهم كلها من جديد وإن عليهم أن يقرروا هناك وحدهم ، مصير فرنسا ومصيرهم . وهام أولاء بروحون وآخرون يفدون وقد أقروا بعجزهم عن إمكان التغيير فاحتفظ أغلبهم بالصمت وقد انطوت أضالعههم على الحقد والموجدة ثم يتولد الخوف من النفس ومن الغير ويحتاج جميع الأوساط ويتم جميع الفئات فإذا الضحية والجلا دليسا إلا صورة واحدة هي صورتنا .

وفي الحالات القصوى ، تكون الطريقة الوحيدة للامتناع عن تمثيل أحد هذين الدورين هي أن نطالب بالآخر .

والاختيار بين هذين الأمرين لا يفرض على الفرنسيين وهو لم يفرض حتى الآن ، ولكن عدم التحديد هذا يثقل كاهلنا : وبسببه تكون « الجرح والسكين » معا فالهلع من أن يكون السكين والفرع من أن تصبح الجرح وكلاهما يتبادلان التأثير والقوة وتصحو ذكريات راقدة

فمنذ خمسة عشر عاما ، كان أشجع المقاومين يخشون الألم أقل مما كانوا يخشون استسلامهم . وكانوا يقولون :

حين يغشى الضحية الصمت فإنها تنقد كل شيء ، وحين تتكلم فليس لأحد الحق في أن يحكم عليها ، حتى الذين لم يتكلموا . ولكن الضحية تتزوج جلا دها إنها امرأته ، وهكذا يفرق هذا الزواج في ليل الوضاعة وقد كر هذا الليل الوضع ، عاد إلى « البيار » في كل ليلة . ولأنه في فرنسا سواد قلوبنا وإن أية دعاية هامة خائفة فتيج لنا أن نسمع منها أن جميع الناس يتكلمون .

هذه هي ألوان التعذيب التي تبرزها الجبهة الإنسانية فما دام كل واحد منا خائناً بالفطرة ، فالجلاء الكامن في كل منا يخطئه الانزعاج والتأثر وخاصة أن عظمة فرنسا تملي علينا ذلك . . وأصوات ناعمة معسولة تفسر لنا ذلك كل يوم :

المواطن الصالح هو ذو الضمير الطيب أما صاحب الضمير الشرير فلا بد أن يكون من دعاة الهزيمة والردد .

وسرعان ما تتحول الدهشة إلى قنوط . فإذا كانت الوطنية هي أن نلقى بأنفسنا بين مخالب الضعة ، وإذا لم يكن هناك أي حاجز في أي مكان يحول بين الأمم أو الإنسانية جميعها وبين أن تتردى في الحيوانية ، فلماذا إذا تبذل هذا الجهد لنحافظ على إنسانيتنا ؟ أن الحيوانية هي حقيقتنا .

ولكن لماذا لم يكن أي شيء آخر صحيحاً ، لماذا كان لا بد من الإرهاب أو أن نموت رهبة وخوفاً ، هذا الجهد الذي تبذله من أجل الكفاح في سبيل العيش ومن أجل أن نكون وطنيين ؟ .

لقد صبروا هذه الأفكار في رءوسنا صبراً ، وأنها لأفكار يلقها الغموض ويشملها الخطأ . لأنها تخرج كلها من هذا المبدأ نفسه :

الإنسان هو الذي لا إنسانية فيه ولأن هدفهم من وراء ذلك ، هو اقناعنا بعجزنا ، وأن تصل هذه الأفكار إلى هدفها مادامنا لا نواجهها والحق أنه يجب أن يعرف عنا في الخارج : أن سكوتنا لا يعني قبولنا لما يجري في الجزائر . إن صمتنا مرده إلى الكابوس الذي يضعونه ويجهونه ويوجهونه ولقد كنت أعرف ذلك من قبل . ولكني كنت في انتظار الدليل القاطع وهأنذا قد وجدته .

منذ حوالي خمسة عشر يوماً ، ظهر كتاب في إحدى دور النشر تحت عنوان (الاستجواب) ومؤلفه هو (هنري أليج) الذي لما يزل معتقلاً إلى اليوم في أحد سجون الجزائر ، وهو يروي ، من غير تعليق أو تعقيب وبدقة فارطة أنواع الاضطهاد والتعذيب التي اكتوى بها من أجل إجباره على أن يعترف . ولقد (اعتنى) الجلادون به كما وعدوه بذلك هم أنفسهم : فقاسى عذاب العطش ، تماماً كما كانوا يفعلون أيام (البرتغالية) .

وأضيف إليه هذه الأقاليم الجديدة التي أدخلها عصرنا المتمددين ، عذاب الكي بالنار وحرقة العطش .

لأنه كتاب لا تنصح أنفوس الحساسة ذات المشاعر المرهقة بالاطلاع عليه . والواقع أن الطبعة الأولى — وهي عشرون ألفاً — قد نفذت . وبالرغم من أن هناك طبعة ثانية تمت على عجل ، فقد عجز الناشر عن تلبية الطلب الملح ، فان بعض المكتبات تباع من النسخ ما يتراوح بين خمسين ومائة في اليوم .

والذين يجسرون على الإدلاء بشهاداتهم حتى الآن هم الذين قضوا حياتهم مع إخوتهم وإخوتنا من الجلادين ، ولم يتبينوا من الضحايا غالباً سوى صراخهم وأنيبهم من عذاب جراحهم وآلامهم .

وكانوا يصفون لنا هؤلاء الساديين الذين استعذبوا تعذيب الناس ، وكيف انجبوا يمزقون الأجسام الطاهرة .

ولكن ما الفارق بيننا وبين هؤلاء الساديين ؟

لا شيء مادامنا نسكت على جرائمهم : وكان غضبنا يبدو لنا صادقاً . ولكن هل كنا نحفظ به لو كنا قد عشنا هناك ؟ أما كان هذا الغضب يتحول إلى استسلام مر كئيب ؟

لقد كنت من ناحيتي أعكف على القراءة لأن واجبي يدفعني إلى ذلك
وكنت أثير أحياناً بعض ما أكتب، وكنت أنظر بعين الاحتقار إلى هذه
القصص التي تضعنا في قصص الالهام من غير مشقة ولا راحة ، والتي لم تكن
ترك لنا أى بصيص من أمل !

أما مع هذا الكتاب « الاستجواب » فإن كل شيء تبدل : إن « أليج »
يوفر علينا مضاضة اليأس وحرارة الحجل لأنه ضحية ولأنه كان فوق مستوى
العذاب أو فوق مستوى البشر .

وهذا التحول لا يتم من غير روح السخرية والحزن . لقد عذبوه باسمنا ،
ولنا لنسترد بعظمته بعضاً من فخارتنا : لنا فخورون بأن يكون فرنسياً .

إن القراء يتقصصونه بشغف ، ويظلون معه حتى قة العذاب والألم ،
ويصدون وإياه أمام الوحدة والعري أترام جديرين ؟ أترانا جديرين
بذلك حقاً وحقيقة ؟

وتلك قضية أخرى ؛ أما الشيء المهم الذي يعتد به هو أن الضحية تعمل
على تحررنا لاذ تقودنا إلى أن نكتشف أنفسنا كما اكتشفت هي نفسها ،
لنا في مقدورنا أن نتحمل كل شيء . . ولزماً علينا أن نتحمل .

لنا نذهل وتدور رؤوسنا عندما نطل على هذه الهوة . . هوة الحيوانية .
ولكن يكفي أن يطالبنا رجل صارم عنيد يضطلع بعهمة الإنسان لينقذنا
مما أصابنا من دوار .

إن « الاستجواب » لم يكن بكل بساطة إلا جرعة خسيصة بشعة
ارتكبها جناة والغون في الإثم ، ضد بشر آخرين ، وباستطاعة سواهم
ومن واجبهم أن يقضوا عليها .

إن انعدام الإنسانية لا يوجد في أى مكان ، إلا في ظل الكابوس الجاثم على الصدور الذى يتولد من الخوف .

والحق أن شجاعة ضحية واحدة وهدوءها كانت السبيل إلى صحتنا لتكشف عن حقيقتنا .

إن « أليج » يستل التعذيب من الليل الذى يواريه . فلنقترب لننظر إليه في وضوح النهار .

فأ هؤلاء الجلادون أولاً ؟

أهم ساديون ؟ أم هم ملائكة أطهار قد تملكهم الغضب ؟

أم هم سادة الحروب ذوو الأهواء الراجعة ؟

إذا صدقناهم وآمنا بما قالوا فهم خليط من كل أولئك !

ولكن الواقع أن « أليج » لا يصدقهم .

إن ما استخلصه من الأحاديث التى ينقلها إلينا أنهم يودون أن يقتلوا أنفسهم ويقنعوا الضحية بجبروتهم وقدرتهم على الظلم . فهم أحياناً يصرعون يضعون ناساً تحت رحمتهم ، وهم أحياناً أخرى رجال عتاة أقوياء وكل إليهم أمر ترويض أقصى اليهم وأضرارها توحشاً ، وأكثرها تراخياً واستسلاماً ، البهيمة الإنسانية .

والمعلوم أنهم لا ينظرون إليها من قرب :

فالهم عندهم أن يشعروا السجين بأنه ليس من جنسهم : ولذلك يجرّدونه من ثيابه ويربطونه بشدة ويهرأون جسده . ويمرّ به جنود جيئة وذهوباً يصبون عليه اللعنات ويرمون به بأقذع السباب ويتوعدونه بالعذاب الأليم المقيم .

ولكن أليج المرتجف من البرد القارس الموثوق إلى خشية ما تزال

سوداء لزجة من آثار قى قديم يعيد هذه المأساة والمآتم إلى حقيقتها
التي تستوجب الرثاء .

إنها مسرحيات يقوم بأدوارها ممثلون حق فأصابتهم الفاشية الجامحة
مسرحية . .

وهذا القسم الذى أقسموه بأن يقضوا على الجمهورية مسرحية أخرى . .
وكلمات « ضابط الجنرال م » التى تنتهى بقوله (لم يبق لكم إلا أن
تنتحروا) هى مسرحية أيضاً .

إنها مأساة فجة ، يعاد تمثيلها كل ليلة بلا قناع أمام كل سجين ، وإن
توقفت فترة ما فلضيق الوقت : ذلك أن هؤلاء الفعلة المرعبين مثقلون
بالأعباء ، وهم مرهقون لأن المساجين يصطفون واقفين بالقرب من خشبة
التعذيب ، ولا بد من وثقهم بالحبال وفك قيدهم ومرافقة الضحايا من غرفة
تعذيب إلى أخرى .

ومن ينظر بعين أليخ إلى هذه الخلية القذرة ، يدرك أن الجلادين
مرهقون بالعمل كل الإرهاق .

وقد يحدث أن يصطنعوا الهدوء وأن يتعاطوا الحمر . وقد تراخوا فوق
جسد مذب ، ثم تراهم ينتفضون ، ويهبون واقفين على أقدامهم ، ثم يركضون
على غير هدى وكأنما أصابهم مس من الشيطان وينطلق من أفواههم أقذع
الساباب ثم يصرخون غضباً ، انهم عصيون من الطراز الأول ، يقبضون
على ضحايا كثيرين ، واعتقادهم الجازم أنهم سيعترفون لهم من الركلة الأولى
وهؤلاء السجنانون على جانب من الحبث والجنون لقرط ما يسبب بهم من
الغضب وهذا مؤكد ، ولكنهم ليسوا مدّين . انهم فى عجلة عاجلة ،
وهذا ما ينقذهم حقاً من الجنون .

إن كلا منهم يقف على قدميه متماسكا من جراء السرعة المكتسبة ،
فعليه أن يجري باستمرار أو ينحور غير أنهم يحبون العمل المتقن . لأنهم عند
اللزوم يدفعهم الحرص على تنفيذ الأوامر وإرضاء الضير المهني إلى درجة
ارتكاب جريمة القتل .

وهذا ما يثير ويحز في النفس في قصة أليج . إن وراء هؤلاء السفاحين
الجناة أو المضحكين عتوا أو قساوة تتجاوزهم وتتجاوز رؤساءهم أنفسهم .

ولقد كان من الممكن أن يكون حظنا كبيرا لو كانت هذه الجرائم
يرتكبها حفنة من الخائنين الخائدين ولكن الحقيقة هي أن التعذيب يخلق
الجلادين .

وبعد هذا كله ، فإن هؤلاء الجنود لم يكونوا قد انخرطوا بعد في فرقة
الصفوة المختارة التي تقوم على تعذيب العدو المهزوم . ويصف لنا أليج
في بضعة أسطر أولئك الذين خبرهم عن يقين ، وهذا يكفي لتسجيل
مراحل التغير .

هناك الجلادون الأصغر سناً العاجزون الذين يتمتعون باضطراب وجزع
« هذا فظيع » عندما يضىء مصباحهم الكهربائي أحد المسجونين ثم إن
هناك معاوني الجلادين الذين لم يشتركوا بعد في العمل ، وهم يمسون
بالمساجين ويدفعونهم في عنف وقسوة . . . وهناك من ينتظر إسناد هذا
العمل إليه لأنهم جميعاً قد غمرتهم الدوامة ، ولا معاذير لهم على الإطلاق
وهناك ذلك الأشقر من المنطقة الشمالية « ذو الوجه . السمع الخلو الذي
يستطيع أن يتحدث عن جلسات التعذيب أخضع لها أليج كما لو كان يتحدث
عن مباراة شائقة يذكرها في نشوة وعذوبة وفي غير مشقة : كما يفعل بالنسبة

لبطل من « راكي الدراجات » .

ولقد رآه « البيج » بعد أيام من سجنه يقتل على السلم أحد المسلمين ،
ووجهه يغلي بالحقد والكراهية .

وهناك الذين يتسلون برؤية الانتفاضات التي تعرو معذباً بالكهرباء ،
ولكنهم لا يمتثلون سماع صراخه وأنيته .

وهناك أخيراً المجانين الذين يطوفون ويدورون كورقة ميتة في دوار
فورانهم وعنفهم .

وليس في هؤلاء جميعاً من هو موجود بذاته . وليس فيهم من سيق
كما هو : لأنهم يمثلون لحظات تحول لا مفر منه .

فهناك فرق واحد بين أفضلهم وأدناهم فأولئك « زرق » وهؤلاء
قدامى . وسينتهى الأمر بهم جميعاً إلى الرحيل ، وإذا استمرت الحرب
فسيختلفهم آخرون ؛ شقر من الشمال أو سمر قصار من الجنوب ، يقومون
بمهام التعذيب ويمتادون العنف نفسه وتملكهم العصبية ذاتها .

وفي هذه القضية لا يقول على الأفراد : فإن هناك حقداً وضيقاً . حقداً
موغلا في الإنسان ينقض في وقت واحد على الجلادين وعلى الضحايا فينحط بهم
معاً ويحط بعضهم بسبب بعض . وليس العذاب إلا صورة هذا الحقد وقد
اندرج في نظام وخلق لنفسه سبله الخاصة .

وحين يثار هذا الوضع في المجلس الوطني . تثار الضجة ويكبر الصخب

والضجيج ، ويعلو نباح بعض الأعضاء: « إنكم تهينون الجيش ! » وينبغي أن نسأل هذه الجراء النابحة مرة أولى وهي الأخيرة .

« ما دخل الجيش هنا ؟ » إن من المؤكد أن التعذيب يقوم أيضاً في الجيش كما يقوم بين المدنيين وإن لجنة الوقاية لم تخف منا ذلك في تقرير لها هزيل ، وبعد ذلك : « أهو الجيش » الذي يعذب .

لأنها حماقة ! أیظنون أن المدنيين مجهلون الوسائل الصالحة ؟ إذا لم تكن القضية إلا هذا فلنمنح شرطة الجزائر ثقتنا . ثم إذا كانت هناك حاجة إلى التصريح باسم رأس عصاة الجلادين فلقد سماه المجلس الوطني كله ، فليس هو الجنرال « س » كما أنه ليس الجنرال « ا » ولا الجنرال « م » الذي ذكره أليج : بل هو السيد لاكوست صاحب السلطات المطلقة فكل شيء يتم بعد مشورته وبإياديه سواء في « بون » أو في « وهران » : أن جميع الذين سقطوا تحت وطأة الألم وويل العذاب في مبنى « البيار » أو في مقصورة « س » إنما قضوا نحبهم بإرادته ، ولست أنا الذي يقول ذلك : لأنهم النواب والحكومة .

والواقع أن القرح يتسع . فهو قد جاوز البحر ، بل إننا نقول في غير تردد إن الاستجواب يجري في بعض السجون المدنية في فرنسا ذاتها . ولا أخرى إذا كانت هذه الشائعة حقيقة ولكن لا بد أن انتشارها قد أثار السلطات العامة ، بدليل أن النائب العام ، في قضية ابن صدوق ، قد سأل المتهم علناً إذا كان قد عذب ، وقد كان الجواب بالطبع مصروفاً من قبل لا إن التعذيب ليس مدنياً أو عسكرياً ولا فرنسياً على وجه التخصيص ، لأنه مرض يسود العصر كله ، فقد عرف الشرق والغرب جلادين . فلم يعض طویل وقت على تعذيب « فاركاس » للمجرمين ، ولا يخفى اليولونيون

لأن الشرطة عندهم كانت تلجأ قبل بوزنان إلى الاستجواب . أما ما كان يحدث في الاتحاد السوفيتي في عهد ستالين فإن تقرير خروشوف هو وحده آية على ذلك واليوم أتى دور قبرص والجزائر .

والحقيقة أن هتلر لم يكن إلا رائداً من رواد هذا العصر .

هذا التعذيب الذي يتوارى بميوعة أحيانا واسكنه يطبق بانتظام وراء ستار من الديمقراطية يمكن تعريفه بأنه أداة نصف سرية . فهل تتوحد أسبابه في كل مكان ؟ كلا ، بلاشك ولكنه يقابل في كل مكان بالنفور والاشمئزاز . والحق أنه لا أهمية لذلك ، فليس لنا أن نحكم على العصر ولنكتف بأن نتظف أمام بابنا ، ولنحاول أن نتفهم ما الذي أحاط بنا ، نحن الفرنسيين .

لأنكم تعرفون ما يذكر أحيانا من صور التبرير حتى لا يبدان الجلادون ، فهم يرددون أنه لا بد من تعذيب بعض الناس لكي يدلوا باعترافاتهم التي قد تحفظ مئات الأرواح . وهذا ثقاق لا يعوزه دليل . فإن «البيج» لم يكن لمرهايا ، وكذلك «أودين» . فهو معتقل بحجة أنه يعمل على الإخلال بأمن الدولة ، ولإعادة تشكيل جمعية منجاة .

أفمن أجل المحافظة على الأرواح البشرية أحرقوا ثدييه ، وشعر عضوه التناسلي ؟ .

لا : لقد أرادوا أن ينتزعوا منه عنوان زميله الذي آواه . ولوتكلم لزوجوا بشيوعى آخر خلف القضبان الحديدية :

هذا كل ما في الأمر .

ثم إنهم يعتقلون كل من يصادفهم ... فكل مسلم تعرض للاستجواب ،
فمنهم من يقدم شهادة كاذبة أو يتهم نفسه سلفاً بجريمة ما تخلصا من
العذاب .

أما أولئك الذين يستطيعون أن يتكلموا ، فالمعروف أنهم يصمتون
كلهم أو جلهم فلا « أودين » ولا « أليج » ولا « جروج » قد فتحوا
أفواههم .

ولا شك أن جلادى « اليار » أوسع معرفة منا في هذا الصدد .
وقد قال أحدهم بعد الاستجواب الأول « لاليج » .
« لقد كسب الجولة الأولى على كل حال ليتيح لرفاقه الوقت الكافى
للتراجع » .

وقال ضابط بعد بضعة أيام :

« لقد استقر فى رؤوسهم منذ عشر سنوات ، أو خمس عشر سنة ،
لأنهم إذا قبض عليهم ، فيجب ألا يقولوا شيئاً : وليس هناك من وسيلة
لاقتلاع هذا التصميم من رؤوسهم » .

لعله كان يعنى الشيوعيين : ولكن أتراهم يظنون أن مناضلا فى جيش
التحرير الوطنى هو من غير هذه الطينة ؟ .

إن أعمال القسوة هذه لا تعود إلا بنتائج سيئة ، ولقد اقتنع الألمان
أنفسهم بذلك عام ١٩٤٤ . لأنها تزهق الأرواح البشرية ولا تعمل على
حمايتها .

ومع ذلك فإن الحجة ليست كلها خطأ : وسيان هذا أم ذاك فإنها تفضح

رسالة التعذيب : إن الاستجواب الذي هو أداة سرية أو نصف سرية ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسرية المقاومة .

وفي الجزائر، انتشر جيشنا في كل بقعة فيها : فنحن نملك الجنود والسلاح والمال ، أما الثوار فلا شيء يملكونه إلا الثقة وتأييد الشعب لهم ، ولقد عرفنا خبر الاغتيالات التي تمر بها المدن ، والكهائن التي تقام في الريف .

وجبهة التحرير الوطنية لم تحدد نشاطها وإنما هي تفعل ما في استطاعتها ومقدورها . إن نسبة قواها إذا ما قورنت بقواتنا فإننا نعذرنا عندما تقوم بهجمات الفجائية . فخطتها أن لا ترى ولا تنتظر ولا تمس ، فشعارها « لمضرب واهرب » حتى لا يقضى عليها . ومن هنا كان ضيقنا : إننا نجالد خصما سرياً .

فهذه قبلة تنفجر في الشارع ، وهذه رصاصة تنطلق فتجرح جندياً من جنودنا في الطريق ، فإذا سارعنا إليه لم نجد أحداً إلى جواره وإن كان لابد أن يعثر على مسلحين لم يروا شيئاً .

إن الحرب الشعبية ، حرب الفقراء ضد الأغنياء . تتميز بالصلة الوثيقة التي تشد بين الوحدات النائرة وبين الشعب ، وفي الوقت نفسه يصبح هذا الفيض من البؤساء بالنسبة للجيش النظامي والسلطات المدنية ، العدد اليومي الذي لا يعد ، ويقض مضجع فرق الاحتلال من صمت أخرس صنع يديها فتدرك أن هناك إرادة للصمت لا يمكن السيطرة عليها كسريع كل مكان .

وكذلك لن يستمر الأغنياء في إحساسهم بأنهم مطاردون وسط فقراء صامتين ، وتجد قوى الأمن نفسها مربكة ، بل عاجزة عن مواجهة العمليات

الحرية الصغيرة إلا بالتطهير وحملات الانتقام ، ومواجهة الإرهاب بالإرهاب
على أن هالك شيئاً خفياً : يجب دائماً الاستجواب والتحرى ، وانتزاع
الكلام فى كل مكان ومن أى إنسان .

إن التعذيب غضب لاطائل تحته أوجده الخوف : يراد انتزاع سر الجميع
من خاق يمور بالصراخ ويتزف الدم . وأتفه لعنف لا مبرر له . وسواء
أجبرت الضحية على الكلام وانتزع منها الصمت أو لقيت مصرعها بين
جحيم العذاب فإن السر الذى لا حصر لعدده موجود فى مكان آخر . . .
لأنه بعيد عن متناولهم . .

وهنا ينقلب الجلاد إلى سزيف : فإن عليه إذا طبق الاستجواب أن يبدأ
دائماً من جديد .

ولكن هذا الصمت وهذا الخوف وهذه الأخطار التى لا ترى قط ،
وهى ماثلة لا تريم ، لا يمكن أن تفسر علة خراوة الجلادين وإرادتهم
فى أن يسوقوا ضحاياهم إلى الضعة ومن ثم إلى الحقن البشرى : إذا استولى
عليهم على غير رضاهم .

إن القاعدة هى أن يتقاتل الناس ، يتقاتلون من أجل مصالح جماعية
أو فردية .

أما فى التعذيب ، هذه المباراة الغربية ، فإنما يقيس الجلاد فيها نفسه
بالضحية من أجل صفة الإنسان وكل شىء يحدث كما لو أنهما لا ينتسبان
إلى الجنس البشرى .

إن هدف الاستجواب لا يقتصر على إجبار الضحية على الكلام وعلى

الحياة : بل على الضحية أن تشير إلى نفسها بالصراخ والاستكانة على أنها
بهيمة بشرية ، في عيون الجميع وفي عينيها بالذات .

يجب على خيانتها أن تحطمها وتخلص المجتمع منها أبد الدهر .

وإن من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط إجباره على الكلام ،
ولمّا هو قد أدين إلى الأبد بأنه أدنى درجة من الإنسان .

ولا شك في أن تميم هذا الشرط سمة من سمات هذا العصر . ذلك
أن الإنسان بحاجة إلى أن يصنع ، إن إرادته في أن يكون حراً لم تكن
في أي وقت أقوى منها الآن ولا أعمى وعيا ولذلك الاضطهاد لم يكن أعنف
ولا أفتك سلاحاً مما هو حادث اليوم .

والمفارقات في الجزائر غير قابلة للتخفيف : فكل الفريقين المتصارعين
يطالب بطرد الآخر طرداً كلياً .

ولقد اغتصبنا من المسلمين كل شيء وحرمانهم كل شيء حق لغتهم .
وقد أوضح « ميمى » أن الاستعمار يتحقق بالقضاء على الوطنيين ،
لأنهم لم يعودوا يملكون شيئاً ، فقد صفيت حضارتهم ؛ وكذلك حرمانهم
حضارتنا .

لقد طلبوا الانضمام فقلنا لهم لا ونحن تتساءل :

بأية معجزة ترانا نستبق الاستغلال الاستعماري إذا كان المستعمرون
يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها المستعمرون ؟ .

لأن النظام المتبع كان يدفع هؤلاء المساكين البائسين الذين أضناهم الجوع والحرمان إلى تخوم الصحراء .

وهناك انخفض مستوى معيشتهم بسبب كثرة المواليد سنة في إثر سنة وجذب الأرض وأخير حيناً اندلعت ثورتهم تخلصاً من هذا البؤس الذي غشيهم واستبد بهم قلنا عليهم هؤلاء ليسوا بشراً فإما أن يلفظوا ألقاسهم أو يؤكّدوا إنسانيتهم فإذا هم يستغنون عن ثقافتنا ويتخلون عن قيمنا وتقدمنا المزعوم . وتساوى عندهم أن يطالبوا بصفة الإنسان وأن يرفضوا الجنسية الفرنسية .

ولم يقتصر هذا التمرد على تحدى سلطان المستعمرين ، وإنما راحوا يكافحون من أجل وجودهم المهدد بالضياع .

لأن هناك حقيقتين متكاملتين لا انفصالان في نظر معظم الأوربيين المستوطنين في الجزائر .

أن المستعمرين هم ذوو الحق المطلق « الإلهي » أما السكان الأصليون فهم أقل مستوى من البشر وتلك هي ترجمة أسطورية لواقع حقيقي ، مادام ثراء الأولين يقوم على بؤس الآخرين وهكذا يفرض الاستعمار أن يكون المستغل تبعاً للمستغل .

ثم لأن هذه التبعية على صعيد آخر هي في صميم النزعة العنصرية ، وذلك هو تناقضها العميق ، وشرها المرير .

أن الأوربي الجزائري يرى أن صفة كونه إنساناً يعني قبل كل شيء تفوقه العنصري على المسلم .

وإذا اعتبر المسلم نفسه كإنسان يقف على قدم المساواة مع المستعمر ،

ثرى ماذا يكون الموقف ؟ إن المستعمر يشعر أنه قد طعن في كازانه وخط من قدره .

وقد يفكر أحياناً في إبادة هؤلاء ولكن ما عساه يصنع من غير أيد عاملة رخيصة من السكان الأصليين ؟ وإذا كان المسلمون حقاً بشراً مثلهم ، فقد ضاع كل شيء ولم يبق هناك حاجة حتى إلى إبادتهم .

ولكن هناك حلاً آخر إذا كان الأمر يتطلب السرعة .

لأنهم يجب أن يسقوا الهوان وتعرض عليهم الذلة والمسكنة . وكذلك يجب عليهم أن يروضوا ويقاوموا في عنف ، فالجزائر لا تتسع لجنسين بشريين ، وإنما هي تتسع لواحد منهما فحسب .

لأننى لا أقول إن الأوربيين هم صانعو هذا العذاب ولا محرضو السلطات المدنية والعسكرية على اقترافه . بل على العكس .

لقد فرض التعذيب نفسه تلقائياً حتى أصبح أمراً . ألوفاً عادياً . غير أن الإحسان الذى تتمثل فيه إنما تعبر عن العنصرية ، لأنه إنما يراد به القضاء على الإنسان نفسه بكل قيمه الإنسانية من أمانة وإمارة وشجاعة . القيم التى يطالب بها المستعمر . .

ولكن إذا استخف الغضب بالأوربيين إلى درجة أن يحتقر صورته نفسها فذلك لأن عربياً قد عكس هذه الصورة .

وهكذا يبدو من هذا الزوج الذى لا يريد انفصالاً ، المستعمر والمستعمر ، الجلاد والضحية ، أن الثانى ليس إلا تبعاً للأول .

إن الذى لاشك فيه هو أن الجلادين ليسوا مستعمرين ، ولا المستعمرون جلادين .

إن هؤلاء في أغلب الظن شبان أتوا من فرنسا حيث عاشوا هناك من غير أن يهتموا بالمسألة الجزائرية ولكن الحقد المشبوب هناك أوجد مجالا للقوى المغناطيسية ، فجذبهم في دائرة استعباده .

إن هذا كله إنما يوحى به مافى قضية « البيج » من بصيرة هادئة واعية . فإذا لم يكن يحمل شيئاً آخر فينبغي أن نحفظ له عرفاناً عميقاً بالجميل ، غير أنه قد أتى بأكثر من ذلك فهو حين أخاف جلاديه ، إنما انتصر لإنسانية الضحايا والمستعمرين ضد العنف المحموم الذي ينطوى عليه بعض العسكريين وضد عنصرية المستعمرين .

وأرجو ألا تنى كلمة « ضحايا » هذه نوعاً لا أفهمه من الإنسانية الباكية :

« إن البيج » وسط هؤلاء القواد الشبان الصغار الفخوريين بفتوتهم وقوتهم وعددهم هو الوحيد الصامد الوحيد القوى حقاً . وبوسعنا نحن أن نقول إنه دفع أغلى ثمن ليؤكد حقاً معنوياً ، من أجل أن يظل إنساناً بين البشر . ولكنه لم يفكر في ذلك .

ولهذا فإننا نقف مبهورين أمام هذه الكلمات التي ردها في نهاية أحد فصول كتابه :

(ووجدت نفسي تغمرني السعادة وأزهو فخورا لأنني لم أنحن ولم أتخاذل ولقد كنت على يقين من أنني سأقاوم إذا عاودوا الكرة . وسأكافح حتى النهاية ، وإنني لن أقدم على الانتحار حتى لا يبلغوا أملهم المنشود ، وينهوا مهمتهم العسيرة) أجل إنه بطل ذو قلب حديد ، استطاع أن يلقي الرعب في أفئدة الشياطين الحاققة الهادرة .

إننا نلصق في أحاديثهم سورة الغضب وكأننا نحاولون أن يقلبوا العالم رأساً على عقب. لماذا ما انتصرت الضحية .. فهم يعلنون أسفهم على زوال السيطرة وحقوق السيادة ، وأخيراً تجمد الأجنحة الملائكية أو الشيطانية ويتساءل كل منهم (أتراني أستطيع المجادلة إذا عذبتوني ؟)

ذلك أن نظاماً من القيم قد حل محل النظام الأول ساعة الفوز والانتصار . ولا حاجة إلى أكثر من دقائق ليصاب الجلادون أنفسهم بالدوار ، والحقيقة أن رءوسهم يانعة القطوف ، وأن العمل أكبر منهم ، ثم لأنهم يستهولون ما يرتكبونه من جرائم ولا يكادون يصدقون ما فعلوه .

وبعد فما جدوى اقلق ضمير الجلادين ؟ لماذا فكر أحدهم في أن يقول شيئاً بادره الآخرون بقولهم :
إذا فقدنا لإنساناً ، فإنا نجد عشرة بدلا منه .

إن شهادة « أليج » تبعد أوهامنا : لا ، إنه لا يكفي أن تنزل العقاب بعض الأفراد أو نعيد تربيتهم ، ولن نستطيع وصف الحرب الجزائرية بأنها حرب تقوم على مثل إنسانية لأنها قامت أساساً على التعذيب . . هذا التعذيب الذي أملت الظروف وشددت نكيره النزعات العنصرية . .

ولماذا كنا نريد أن نوقف هذه الأعمال الإجرامية التي تنفر منها الإنسانية ، وأن نتشل فرنسا من وصمة العار ، وننتقد الجزائريين من هذا العذاب الوحشي ، فليس هناك إلا سبيل واحد هو أن تفتح باب المفاوضات على مصراعيه وتدخل إلى السلام من أوسع أبوابه ...



نادى التجديف بالاسماعيلية

تشجيع هبة قناة السويس للشهروحات

السياسية منطقة القناة

أدلى المهندس محمود يوسف ، رئيس هيئة قناة السويس لجريدة الاخبار بجهد بحث تناول فيه موضوع جزيرة
البلاخ التي تقع وسط القناة بين مدينتي بورسعيد والاسماعيلية وإمكان جعلها مركزاً سياسياً يستطاع استغلاله
من الناحيتين السياسية والاقتصادية في المنطقة .

فن المعروف أن قافلة السفن القادمة من الشمال تتحرك من بورسعيد في اتجاه الاسماعيلية في الساعة السابعة صباحاً
فتبلغ جزيرة البلاخ في حوالي الساعة الثانية عشر ظهر آوى تستطيع القافلة القادمة من الجنوب في اتجاه بورسعيد
مواصلة سيرها عبر منطقة البلاخ ، حيث لا تتسع القناة لممر القافلتين في وقت واحد ، ترسو سفن القافلة الأولى ،
ويتراوح عددها بين ١٥ و ٢٠ سفينة ، في محاذاة الشاطئ الغربى للجزيرة طيلة الفترة الكافية لممر القافلة الأخرى
ومن هنا نشأت فكرة استصلاح جزيرة البلاخ على أسس سياسية وذلك بإقامة مطعم شرقى فاخر بجانب
مقاصف وملاهى ومحلات لمرضى وبيع السلع المحلية حيث يستطيع عابرو القناة قضاء فترة توقف القافلة عند الجزيرة فيها .
وقد أعرب المهندس محمود يوسف عن استعداد الهيئة للتعاون مع الجهات المعنية في سبيل تحقيق مثل هذا
المشروع وغيره من المشروعات السياسية التي تعود بالفائدة على المنطقة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية .

اخترنا لك

مع الباعة في كل مكان

أشهر الكتب الإسلامية

تأليف

الدكتور مصطفى سباعي

الثمن ١٠ قروش

اخترنا للطالب

مع الباعة في كل مكان

في ذكرى البطل

جلال الدين دسوقي

بقلم

على الجمبلاطى

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

روايات عالمية

تقدم يوم السبت القادم

بين ملكتين

قصة النضال الهائل علي عرش انجلترا
بين البصابات وماري ستيوارت

بقلم الكاتب الانجليزي البكر

١. بارنجتون

الشمس

الشمس

الكتاب ١٢٤

يصدر يوم الخميس ٩ نوفمبر (١١ تشرين الثاني)

الدار القومية للطباعة والنشر

شركة ذات مسئولية محدودة

١٥٧ شارع عبید - روض الفرج

ت ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

06833331



stx.
03
514